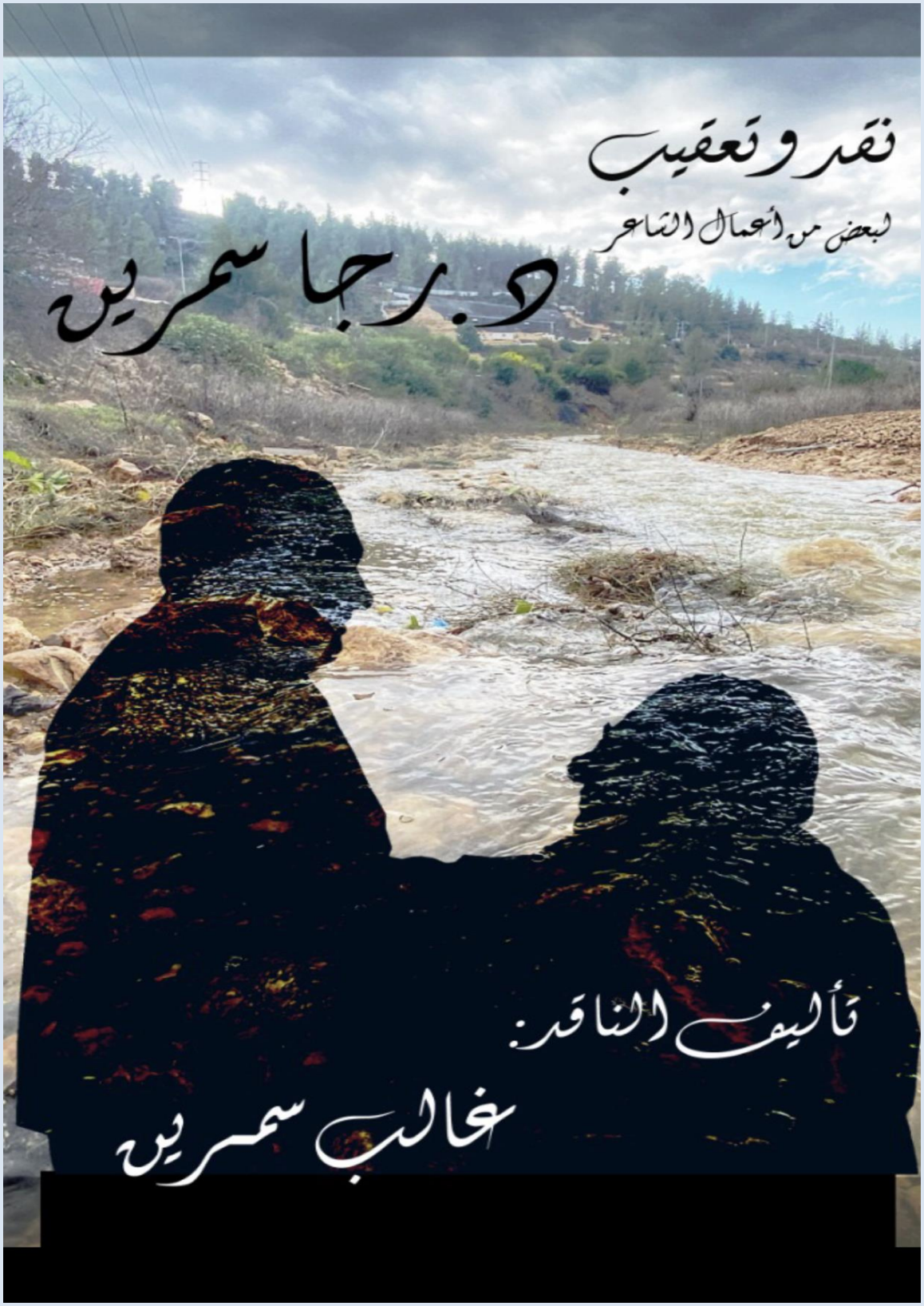
نقد وتعقيب
لبعض من أعمال الشاعر
د. برجا سمرين
تأليف الناقد:
غالب سمرين

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية
(.../.../٢٠٢٠)
يتحمل المؤلف كامل المسئولية القانونية عن محتوى مصنفه، ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

....,...
سمرين، غالب محمد
نقد وتعقيب لأعمال الشاعر د. رجا سمرين/غالب محمد سمرين.-
عمان: المؤلف ٢٠٢١
(**)** ص
.....٢٠٢١
الواصفات: الشعر العربي/النقد الأدبي/الأدب الحديث

شكر وعرفان

تصميم الغلاف: م. آيات سمرين

صورة الغلاف بعدسة الفنان: علي زهير خطاب

(مقطع من وادي الصرار/ قالونيا، ومشهد من القدس)

تمهيد

يحتم عليّ العرف الأكاديمي أن أبين الأسباب التي حفزتني لدراسة بعض من الأعمال الشعرية للدكتور رجا سمرين:

السبب الأول:

منذ خمسينيات القرن العشرين وحتى يومنا هذا؛ اقتصرت المؤسسات الثقافية ومعها دور النشر الرسمية والشعبية على متابعة الأعمال الأدبية تحت غياب كامل وتغييب جارح لأي نظام فني عادل للنشر والمشاركات المحلية منها والعربية، مما أدى إلى ابتلاء الساحات الأدبية في الوطن العربي بداء الشللية والمافيا الأدبية، الأمر الذي أدى إلى سيطرة الأدعياء فيها على كافة وسائل الإعلام فتحكمت في دور النشر والانتشار، ومن ثم في توزيع الجوائز وتقديم الحوافز وتحديد المشاركات لشخصيات وجهويّة وفئويّة ولحساب الجغرافية الضيقة. وكان من نتيجة هذه السياسة الظالمة أن جرى تهميش نوابغ الأمة الحقيقيين من الشعراء وغيرهم بدلاً من تسليط الأضواء عليهم وعلى إبداعاتهم لينعموا بما هو حق لهم من الشهرة وذيوعها في حياتهم وفي مماتهم!

السبب الثاني:

شِعْرُ الشاعر الدكتور رجا سمرين لم ينل حقه الطبيعي حتى في العرض والتحليل، والمتابعة والتقييم، على الرغم من امتياز تجربته وأعماله الشعرية، وغزارة إنتاجه فيها بذات القوة والأصالة على مر السنين.

السبب الثالث:

الدكتور رجا سمرين شاعر على رأس فرسان الشعر من الذين يقفون على أرض شديدة الصلابة من الوعي بالتراث العربي والثقافة الإسلامية وآدابها السابقة، على عكس ما يفعله الشعراء الجدد –الذين يجري تمجيدهم في كل مناسبة– وهم مقطوعي الصلة بماضيهم وتراثهم بل وبواقعهم، والذين لا يفتأون يصرخون للتخلص من هذا التراث أو تهميشه على الأقل، متجاهلين – تحت مظلة غبائهم – أن الثقافة والآداب العربية والإسلامية والتراث العربي كلها تؤكد على وحدة الأمة العربية في الأهداف والمصير والتطلعات والآمال.

السبب الرابع:

كثيرون من الشعراء المحدثين والنقاد المعاصرين في الساحات الأدبية بالأقطار العربية؛ في الكويت، في مصر، في تونس، في العراق وفي الأردن وغيرها - سبق وأن أشادوا بالتجربة الشعرية عند شاعرنا، وبشعره الرصين.. فلو استعرضنا ما نشر في الكتب وما نشرته الصحف والمجلات في تلك الأقطار وما جري في اللقاءات والأمسيات والندوات لأدركنا قيمة العمل الجاد والعطاء المميز للتجربة الشعرية عند الدكتور رجا سمرين.

وفي هذه العجالة أكتفي بهذه الأسباب للغوص في أعماق تجربة الشاعر والإبحار في بحور شاعريته العميقة لاستكشاف مكنونات نفسية الشاعر قبل مدلولاته الشعرية، وإشاراته الرمزية. ونستعرض فيما بعد بعض النصوص الشعرية لشعراء وأدباء معاصرين للشاعر والتي وإن دلت فهي تدل على القيمة الأدبية لشاعرنا الدكتور رجا سمرين وعلى عظمة شعره.

واختم تمهيدي هذا أن السبب الأخير لاختياري القيام بهذه الدراسة هو ما قاله يوماً الدكتور الناقد السعودي "عبدالله الغذامي": أن مؤرخي الأدب في أغلبهم يؤرخون لمن سلف ويهملون المعاصرين لهم".

إهلال

صحبت الشاعر طيلة سنوات دراسته في مصر – ستة أعوام كاملة – كتوأمين يبدوان للناس والمعارف. وكنت عند شاعرنا أول من يُطلِعُ عليه قصائد شعره.

حفظت من شعره الكثير، أرويه في المجالس... بل ودرَّسته في المدارس، وأقرأه عنه مرات، وأُذكِّره بما استفذته الذاكرة أحياناً وهو يحاول أن يتذكرها فلا تسعفه.. شأني في ذلك شأن الحال عندما كان لكل شاعر صديق مرافق يحفظ شعره ويرويه عنه.

وما زلنا على هذه المداومة حتى توطدت العلاقة بين شاعرنا رجا وصديق عمره الشاعر السوري "محمد عالي الحمراء دُمَّرْ/ الشهير بعلي دمر" بعد أن جمعت بينهما الشاعرية، والدراسة، والتخصص، وسكن الجوار، وارتياد الأمسيات الشعرية، وحضور الندوات الأدبية.

كان الشاعر فيهما –عند ولادة قصيدة جديدة له– يحرص على أن يعرضها على صنوه أولاً، فأستمتع وأنا أستمع إلى مناظرة شعرية رائعة تبدأ بينهما، وأشهد حجة تطرح حجة أخرى أرضاً لتثبت مكانها، وتتحول المناظرة إلى مجادلة بالحسنى بينهما، تنتهي إلى ما ينبغي أن يكون عليه أمر القصيدة... موضوع محكم: فهذه غميزة تعيب القصيدة -نتخلص منها- وهذه لفظة مضطربة في سلكها قلقة لا تثبت، فلا بد من استبدالها.. وذاك معنى متهافت.. وتلك صورة سوقية لا يرقيان إلى شرف القصيدة، ولا يستويان مع ما ترمي إليه وتهدف...

حاز كلا الشاعران على إعجابي بهما وإكباري لهما برقيق الذوق فيهما، وبرهف حسّهما الدقيق، وبحبهما للدعابة والفكاهة، وبما يحفظانه من سفر وفير من شعر الغزل والمناسبات وغير ذلك قديماً وحديثاً.

الفصل الأول

نشأة الشاعر

ولد شاعرنا الدكتور رجا بن محمد بن عبدالله بن سمرين في ريف فلسطيني جميل، في قرية تشكل لمحة من لمحات الإبداع الإلهي في هذا الكون؛ تدعو العقل وتستهوي الروح للتفكر والاستمتاع بجمالها. تحيط بها أرض خضراء، وفيرة الثمار، يلطفها جو منعش، وطقس معتدل أغلب شهور السنة، تسقيها ينابيع وعيون، ماؤها عذب من سلسبيل، ونقي كما تكون العذوبة والسلاسة والنقاء، تغسل العقل وتنقي الروح، وتطهّر القلب.

جبالها تكسوها الأشجار المباركة: أشجار التين والزيتون... والتين يحبه الإنسان والعصفور... فأشجاره لا تنفك تطعمهما معاً منذ أن عبق الزمان برائحة الوجود، والزيتون أرفع أوسمة الله جمالاً وشأناً زيّن بها صدور الجبال. وبالقرب من الوديان، وبجوار العيون تمتلىء جنانها بالرمان، وبساتينها بفاكهة التفاح والأجاص والبرقوق مختلفة الألوان والأنوع والأسماء...

وفي شمال القرية وغربها تتجذر كروم العنب ودواليها من رحم أرضنا التي نحبها، منها مرفوعات على عيدان وسيقان، ومنها متروكات على وجه الأرض متحررات. وإلى جوارها تنتشر حقول وموارس الحبوب.. حدائق وبساتين.. كروم وحقول.. وموارس تخرج ثمارها يانعة ناضجة في غاية الجودة والطيب... فتتباهى الطبيعة فيها بمنظرها البهيج في الزمان والمكان.. فتملأ صورتها الأنيقة عيون المتوسمين.. وتبارك الله أحسن الخالقين.

وإلى جانب كل ذلك: في صحن الدار وعلى قمم جداره تصطف وبجمال أخاذ صفائح النعنع والمنثور والفل والريحان والورد والياسمين... [1]

في هذه البيئة وُلد شاعرنا ودرج، وكان استقبال ناظره لهذا الجمال يومياً طيلة العشرين سنة الأولى من سني حياته، وتعايشه مع هذا البهاء وتفاعله معها أثراً عظيماً ترك بصماته على شعره كما تركت بيئة الأندلس ومدنها بصماتها على الشعراء فيها.. أو كما تترك كل بيئة بأمكنتها وأزمنتها بصماتها على الشعر والشاعر.

---

(١) من كتاب فلسطيننا في قصة قرية "قالونيا – الأرض والجذور" صفحة ١٣ لمؤلفه الأستاذ غالب محمد عبدالله سمرين.

جاء شاعرنا إلى دنياه في يوم الخميس السابع من آذار (مارس) عام ١٩٢٩م، الموافق للخامس والعشرين من رمضان عام ١٣٤٧هـ، وُلد في قرية قالونيا إحدى القرى التي تتبع قرى بيت المقدس الشمالية[١]. وكانت أسرة الشاعر تكثر فيها وفيات الذكور من الأطفال.. أربعة منهم ماتوا تباعاً، ولم يكمل الواحد منهم عاماً كاملاً!

جاء شاعرنا لأسرته بعد عدد من الإناث اللواتي امتدت حياتهن... ورزق الأب بهذا المولود الذكر وهو في سن الخامسة والأربعين، فأطلق على وليده اسم (رجا) وهو لفظ من الأمل نقيض اليأس[٢]. ويشير أبوه بهذا الاسم إلى توقع الخير بقدومه، راجياً أن تتحقق راجيته في هذا المولود في مقبل الأيام في خضم صراعه فيها... فالأسماء بأشكالها البسيطة ذات دلالة وفعالية تعكس بشكل عام مشاعر إنسانية مشتركة في نطاق الأسرة.

والد الشاعر

أما أبوه واسمه محمد بن عبدالله بن أحمد بن سمرين بن عسكر بن خطاب.. فإليك قصته التي أعرضها هنا بإيجاز...

لم يمنع ذلك الأب حبه لوليده وطول انتظار قدومه وهو في كهولته، بل وشدة حماسة له ولكل ما كان يتمناه من تفاعل أبوته الواعدة على بنوة هذا الوليد المرتجى، كل ذلك لم يمنعه من مواصلة جهاده ضد الغزاة يهود وأوصيائهم البريطانيين، وضد السماسرة الخونة في فلسطين.

كان صغيره في شهور السنة الأولى حينما وجد الأب نفسه في خضم نضال جليل وهو يحارب مع رفاقه الأشاوس الغزاة يهود وحماتهم الانجليز... اتهموه بقتل عدد منهم... فاعتقلوه مع اثنى عشر شاباً من شباب بلدته قالونيا في السادس والعشرين من نوفمبر عام ١٩٢٩م.

وكان صدى إحدى العمليات الفدائية لهذه النخبة[٣] من شباب بلدة الشاعر قد وصلت إلى ذوي السلطة والنفوذ في فلسطين تلك الأعوام[٤] فتولوا مساندتهم أثناء محاكمتهم التي امتدت حتى غطت جلساتها الخمسين جلسة محاكمة في القدس، ودافع عنهم عدداً كبيراً من مشاهير المحامين الفلسطينيين آنذاك تم تعيينهم من قبل المجلس الأعلى، أذكر منهم فخري الحسيني، جورج صلاح، فايز نزال، إبراهيم كما، ونصري نصر... ألخ.

---

(١) تقع على بعد ٧ كم غرب القدس.

(٢) انظر لسان العرب.

(٣) اسمها عملية دار النمر، أسفرت عن حرق مستعمرة موتسا التحتا وقتل عدد من اليهود. انظر كتاب "فلسطيننا في قصة قرية "قالونيا - الأرض والجذور" للمؤلف غالب سمرين.

(٤) المجلس الإسلامي الأعلى يرأسه الحاج محمد أمين الحسيني زعيم ومفتي فلسطين آنذاك.

كان والد الشاعر ثورياً حقيقياً، وقومياً صادقاً، تتأجج داخله الأحاسيس والمشاعر الثورية، التي تبلورت عنده في عمليات فدائية عديدة مشهود لها امتدت وغطت أعوام الثورات الفلسطينية ما بين عام ١٩٢٩ حتى سنة ١٩٣٨م.

كان محمد سمرين والد الشاعر رجا يؤمن بالفعل وليس القول وهذا ما يميز الرجال الصادقين عن غيرهم.. وإذا كان للكلام ضرورة ملحة عنده فإنما يأتي ذلك بعد تنفيذ الفعل وإنجاحه!

تنظر إلى ملامح وجهه فيمتلأ قلبك بالرهبة التي تمتزج بالتوقير والإكبار والاحترام.. تبدو عليه سمات الكبرياء.. كبرياء جبال فلسطين وشموخها.. تدور داخل نفسه جدلية الحياة بكل أبعادها في معركة صامتة مع نفسه. كان يعتبر نفسه جندياً من جنود الرحمن، وظيفته في الحياة أن يقتل ما استطاع من الغزاة يهود، ومن أوصيائهم الانجليز، كان يردد دائماً على نفسه وعلى سامعيه قوله: (السيف الطايل يعدل الحق المايل) [١]..

انحدر شاعرنا من صلب رجل كان ذا شأن يعرفه أهل بلدته وسكان القرى المجاورة... والبعيدة... صاحب شأن في الشجاعة والبطولة والفداء... فورث شاعرنا الكثير من معاني هذه الأمور وقيمتها وما يلحق بها... وتغنى بها في قصائده.

وشاعرنا يعرف الكثير من خطر أبيه أثناء حياته، وعن عظمته بين أقرانه من قادة الجهاد من الفلاحين من مثل: قاسم الريماوي من بيت ريما، وأبي شعبان وأبي علي عبدالرحمن شحدة من لفتا، وخليل منون من عين كارم، ومحمد البطق من قرية بيت عانا، وخضر العابوري من قرية أبو ديس - الذين كثيراً ما لجأوا إلى بيتنا في قرية قالونيا أيام طفولتنا في أربعينيات القرن العشرين للاختباء من مطاردات عسكرية ضدهم من قبل قوات الاحتلال الانجليزي في تلك الحقبة.

يحدثنا القصص الأدبي أن والد جرير الشاعر – خصم الفرزدق "الخطير"– كان ذا شأن خسيس قد خذل ولده جرير وأتعبه، فوجد الابن الشاعر السلوى والعوض في شعره.. فقال في أبيه شعراً مميزاً.. أضاف فيه لأبيه من الخلال والخصال والصفات والأخلاق دون أن يكون لذلك الأب ضئيل الشأن منها نصيب أو سبب! وقارع جرير به سبعين شاعراً، فغلب به الشعراء، وقهر الفحول... حتى أنه أظهره للناس بهيئته المزرية دون خجل حتى يبرهن أن في شعره من الكبرياء ما يطامن من غروره...

---

(١) من كتاب فلسطيننا في قصة قرية "قالونيا – الأرض والجذور" للمؤلف غالب سمرين.

في (الأعمال الشعرية الكاملة) لشاعرنا الدكتور رجا سمرين قصيدة واحدة لأبيه... نظمها بعد أن نظم الكثير من القصائد في الشعر الأسري: قال في الزوجة: حبيبة وخطيبة وزوجة وأمّا وجدّة، وقال في الأبناء الأربعة، والبنات الثلاث... والأحفاد والحفيدات الكثير... وأنشد القصائد في المعارف والرفاق والأصدقاء.. بل وخلّد أحدهم بكتاب خاص أهداه له [١].

تذكر الشاعر أخيراً أو متأخراً أنه لم يخلد أباه وسيرته البطولية حتى في قصيدة واحدة.. فلا بد أن يقول فيه شعراً.. وخاصة وقد ظهر كتاب تحدث فيه مؤلف هذا الكتاب عن سيرة الأب، وسجل عملياته الفدائية التي قام بها [٢] بما يستحق من تقدير وعرفان بالجميل – وتوالت من بعده كتب أخرى لغيره بذات الموضوع[٢].

وبعد اثنتي وعشرين عاماً من وفاة أبيه؛ نظم الشاعر قصيدة عنوانها: (رسالة حب إلى سيدي الوالد... في مثواه الأخير).. لم يستلم والده الرسالة.. ولم يقرأها له أو يسمعها له.. فكيف يقرأ أو يسمع من في القبور؟! وكان والد الشاعر أثناء حياته يعرف قيمة الشاعرية في ولده، وقد حضر بعضاً من أمسياته الشعرية في قاعات منظمة التحرير الفلسطينية في دولة الكويت.. كان والده ينوه بشاعرية ولده رجا دائماً.. وقد أفخر أبوه بها على أبنائه الآخرين.. نظم الشاعر تلك القصيدة – كما هو مسجل في ديوان (الأعمال الشعرية الكاملة) للدكتور رجا سمرين بتاريخ ١٩٩٦/٧/٤، أي بعد وفاة والده في نفس الشهر (يوليو) من عام ١٩٧٤م.

يقول الشاعر في مطلع رسالته الشعرية:

سـيدي الوالـد مهـلا لا تلمنـي

إن أنـا أبطـأت فـي التعبيـر عـن حزنـي عليـك

يشير هذا المقطع إلى خجل الشاعر من أبيه بجمل اعتذار شفيعاً له.. يطلب فيه من أول وهلة يتواصل بها معه بعد موته أن لا يبادره بالعذل والتعنيف.. لماذا؟! هل جاء الشاعر بلومة يلام عليها عند أبيه؟

---

(١) كتاب (علي دمر شاعر الحب والغربة والحنين) تأليف الدكتور رجا سمرين.

(٢) (٢) ظهر أولا كتاب (قالونيا الأرض والجذور لمؤلفه الباحث غالب سمرين. ثم ظهر كتاب (قالونيا، الإنسان، الأرض، التاريخ) ١٩٩٩ للمؤلف فخري أحمد الخطيب. ثم ظهر كتاب (قالونيا- بوابة القدس الغربية) عام ٢٠٠١ تأليف رئيس الجمعية الخيرية لأهالي قالونيا في شيكاغو، الولايات المتحدة الأمريكية الأستاذ محمد عثمان حسن عسكر.

وعلى ذات المنوال، يذكرني موقف شاعرنا هذا بموقف معاصره الشاعر القاضي (سليم الزعنون) من أبيه.. يعبر الزعنون عن ذلك الموقف في قصيدة رثاء لوالده عام ١٩٨٠م وقد سبق أن مات أبوه عام ١٩٧٥، أي كان رثاؤه له بعد خمس سنوات..

يقول الزعنون:

بعـــــد خمـــــس أرثيـــــك هـــــل لـــــي عـــــذر

بانحبـــــــاس الأشـــــــعار عـــــــن شـــــــفتيا؟

إلى أن يقول في ذات القصيدة:

فهـــــو فـــــوق البيـــــان والشـــــعر والنثـــــر

وفـــــــوق العلـــــــوم ذكـــــــراً عليـــــــا

لا يهمنا إن كان لكلا الشاعرين عذر أو لا عذر... ماذا كان يجيب شاعرنا لو سألناه عن سبب إبطائه عن رثاء أبيه.. أو القول فيه شعراً حيّا -في أثناء حياته- كما فعل مع أصغر أحفاده وحفيداته؟ هناك الكثير من المواقف والأسباب التي يمكن أن تسلط الضوء على الإجابة التي قد ينتظر أن يبوح بها الشاعر، وخاصة أننا لسنا على علم بدخيلة نفسه...

في محاضرة للشاعر د. رجا بعنوان (الأسرة في الشعر العربي المعاصر)[١] يقول: "... أما الآباء فقد لاحظت أن الشعراء قلما يذكرونهم في شعرهم وهم أحياء، وأكثر ما يكون ذلك عند الموت.. حيث يلجأ الشاعر لرثاء أبيه..." ثم يسترسل: "...ولعل ندرة ذكر الآباء في الشعر الأسري المعاصر إنما يرجع إلى ما يتصفون به عادة من الجد والصرامة والتشدد في المعاملة... فهم أقدر من الأمهات على كبت عواطف الشفقة والحنان تجاه الأبناء، ولهذا قلما يلجأ الشاعر إلى التعبير عن عواطف الحب التي يكنونها لآبائهم...".

---

(١) ألقيت في الموسم الثقافي في معهد التربية للمعلمين بالكويت، في الساعة العاشرة من صباح الاثنين ١٩٨٣/٢/١٤. انظر: معهد التربية للمعلمين- الكتاب السنوي للموسم الثقافي ١٩٨٣/١٩٨٢ الكويت ١٩٨٤ صفحة ١٥٥ و ١٥٦.

والدة الشاعر

أمّ الشاعر أردنية معروفة النسب والانتماء، تنتمي إلى عشيرة "عياصرة" من قرية ساكب من أعمال مدينة جرش اسمها "فاطمة عبد اللطيف المفلح".. كانت لا تتحدث إلا بلهجة أهلها البدوية – ولم تتغير رغم أسفارها العديدة برفقة الزوج إلى كافة أقطار العالم العربي– لهجة البداوة تلك التي طالما أحببناها وطربنا لسماعها منها لهجة عذبة ماتت عندنا بموتها وأصبحت في عداد التراث الذي فيه قيم الجدّات والجدود.

كانت -رحمها الله- تحفظ الكثير من الأمثال العربية، والأقوال الشعبية[1]، وكانت تحفظ شعراً كثيراً وتجيد ترديده في المقام المناسب، وكانت تحسن الاقتباس والتحوير والتجيير بما تحفظه من الأشعار، فيبدو تأليفاً جديداً من إبداعها ملائماً للمناسبة الطارئة وللموقف الجديد.. هذا الإبداع المشهود لها به كان من وحي الشعر الفولكلوري المتناقل شفهيا بين الناس.. مما حدا إلى إعطائها لقب "الشاعرة".

وكان من عاداتها في ليالي الشتاء البارد.. وقد خلت الدار من الصحب والزوار.. وحول كانون النار.. تثير في نفوس أبنائها -ومن بينهم شاعرنا- شجون الوحدة والخوف من المجهول.. بأن تشدوا بصوتها الجميل حزناً تراكم عندها بفعل الأحداث الجسام في الأيام الصعاب منذ أن فارقت مسقط رأسها في قرية ساكب مع زوجها الفلسطيني والد الشاعر.

فارقت الأهل والعشيرة والديرة، وهي زوجة صغيرة لا تعي أهمية إضافة الملح إلى عجين خبيزها... وتموت والدتها (جدة الشاعر) كمداً وحزناً على فراق ابنتها بعد أيام من رحيلها، ودأبت تلك الجدة –رحمها الله في ليالي تلك الأيام– على مناجاة قمر كل ليلة ترجوه في مناجاتها أن لا يضنّ بضوئه على ابنتها الصغيرة: (ينير دربها ويعزز السكينة في داخليتها!).

---

(٢) من الأمثال الشعبية التي لا أزال أذكرها : Folk Sayings

- أبو البنات شايل كتافه حسنات.
- إجريها عوج وبدها بابوج.
- فكرناهم رخاص طلعوا مجانا.
- عشنا وشفنا وما ظل شي يدهشنا.
- الزين في بناتنا سلالة من العمة للخالة.
- اللي يطلع ما داره بينهان مقداره.
- عشرة الناس بتتعب الراس.
- بكره بذوب الثلج وبيبين المرج

ويموت لها (أمّ الشاعر) أربعة من الأبناء الذكور متتابعين قبل مجيء شاعرنا.. هذا الحزن المتراكم لطالما جعلها تشدوا لنا بصوت متهدج باك، وتمده بأشعار العتابا والمواويل، تشجوا بالنا بالحزن فتصهر وجداننا في بوتقة آلامها، فتنهمر دموعنا، فتسارع حينذاك بتلطيف الجو بأشعار جديدة وبألحان أكثر رقة وعذوبة وتحلمه بطبقات صوت جديد تعدل بها أمزجتنا ومن ثم تعيدنا إلى اتزاننا.. وإلى مرحنا...

ولقوة حماس أم الشاعر للشعر ولحفّاظ الشعر؛ كانت تشجع ابن عم للشاعر – وهو أحد حفاظ الشعر– على زيارتنا في ليالي الصيف وفي ليالي الشتاء [1] .. فنسمر ونتعلل إليه وهو يقرأ لنا القصص الشعبية، ويترنم بما فيها من شعر بلحن خاص مألوف، وكان رحمه الله بارعاً في أداء السيرة الشعبية والتغني بأشعارها وبصحبته جرات ربابته ذات النغم الجميل المريح.. يشدو بأشعار أبي زيد الهلالي، وذياب بن غانم، والسلطان حسن، والزناتي خليفة، وسيرة ابنته سعدة، وسيرة حمدة، ومن بعدها سيرة الزير سالم، مهلهل الشعر، وعنترة العبسي.. ويقص علينا في سهراتنا معه سيرة حياة أبطال العرب.

كنا نتعلق بصاحب الربابة – رحمه الله – فلا يبرح التعليلة ولا ننام حتى نعرف ما يؤول إليه الحدث في تلك السيرة في ليلتنا، وكعادة الشاعر الشعبي.. يوافق مزاجنا فيريحنا. ومن تلك السير حفظ الشاعر رجا الكثير من الحوادث والأشعار... ومن تلك السير تعلم شاعرنا الكثير من الأخلاق والمثل الإسلامية والعربية الأصيلة والنبيلة قبل أن يقرأها في مكتبات مصر أو في المدارس أو في الجامعات.. وقبل أن يقرأ عنها في كتب الدين والتاريخ وفي كتب العلوم الإنسانية فيما بعد... فعرف الصفات التي تميز العربي الأصيل من شهامة وبطولة ومروءة ونخوة وكرم ووفاء، وقول الحق ونبذ الظلم، وتمجيد القرابة ورابط الدم في العشيرة، واحترام صغيرها وكبيرها...

أم شاعرنا أعظم كتاب قرأه ولدها الشاعر، ففي حضنها درج، فأسقته من سقية القوافي والنغم، وأرضعته اللبن الشعري قبل أن يلج عالم الشعر فوق مقاعد الدراسة فتستقيم له قواعد اللغة وتتحدد معالم الشاعرية عنده.

---

(١) وكان والد الشاعر قد التحق بخدمة وحراسة زعيم فلسطين في مصر عام ١٩٤٦م وكان شاعرنا حينذاك في السابعة عشرة من عمره.

ما الذي تعلمه شاعرنا من هذه الأم العظيمة؟ في قصيدة له متعددة القافية والمعنى -وقد أسمعها إياها قبل وفاتها بتسعة وعشرين عاماً، نرى الآثار الطيبة التي تركتها أمه فيه وذلك من قصيدته (أمي):

إذا مـــا ادلهمَّـــت علـــي الخطـــو ب وعمـــت أمـــامي جميـــع الـــدروب

ولـــم ألـــق فـــي وحشـــتي مؤنســـاً يبـــدد عنـــي جيـــوش الكـــروب

وغـــاص فـــؤادي فـــي لجـــة مـــن الهـــم ســـوداء مثـــل الظـــلام

وجفـــــت ينـــــابيع آمالـــــه وصـــوح زهـــر الأمـــاني العظـــام

ذكرتـــك يـــا أم فـــي محنتـــي لأحيـــي بـــذكرك نـــوراً أفـــل

فينجـــاب عنـــي ضـــباب الحيـــاة ويحيـــي بنفســـي شـــعاع الأمـــل

وأمضـــي أشـــق الطريـــق الملـــيء بأشـــواك دهـــر كفيـــف البصـــر

بعـــزم شـــديد كعـــزم الأســـود غـــذيت بألبانـــه فـــي الصـــغر

فـــلا أنثنـــي دون نيـــل المـــرام ولـــو كـــان فـــي نيلـــه حتفيـــه

فأنـــت التـــي كنـــت علمتنـــي بـــأن الحيـــاة جهـــاد مريـــر

وأن العـــلا للجســـور الصـــبور وأن المهانـــة حـــظ الحقيـــر

القصيدة وإن كان الشاعر قد كتبها من أجل أمه إلا أنها تذهب باتجاه داخلية الشاعر في معانيها وفي مبناها إلى حد انتاجها هوية بديلة.. وما ذلك إلا – كما أرى– لانهماك الشاعر بفض اشتباك داخلي فيه...

ولا زلـــت أذكـــر مـــا قلتـــه عـن العـدل فـي الأرض أرض البشـر

وكيـــف تســـير الأمـــور كمـــا يشـــاء الســـراة وحكـــم القـــدر

وأذكـــر تلـــك الوصـــاة التـــي غـــذاها حنانـــك يـــا أميـــه

فإنـــــك أوصـــــيتني بالســـــلام وأن أشـــمل النـــاس فـــي حبيـــه

لـــذلك صـــرت عطوفـــا رحيمـــا يمـــزق قلبـــي أنـــين العفـــاه

فرحـــت أجاهـــد مـــن أجلهـــم وأجـــل الســـلام جيـــوش الطغـــاه

ولـــن أنثنـــي دون نيـــل المـــرام ولـــو كـــان فـــي نيلـــه حتفيـــه

فأنـــت التـــي كنـــت علمتنـــي بـــألا أعـــود بـــلا نجحيـــه

الدكتور رجا يمدح نفسه ويزهو بها

أولا: اخترت قصيدة (أنا) وهي من الشعر الفكاهي من البحر الطويل، نظمها الشاعر عام ١٩٥٠. وهي أبيات طريفة افتخر فيها الشاعر بنفسه مستخدما فيها المصطلحات النحوية.

يقول فيها:

أنـــا الكلـــم المرفـــوع فـــي كـــل موضـــع

بضـــمة كفـــي عـــن جميـــع السفاســـف

أي هو الفاعل المترفع عن النقائض.

نصـــبت علـــى التعظـــيم دومـــاً لأننـــي

عفيـــف شـــريف مـــن توليـــد وطـــارف

أي المنصوب على العظمة.

ثانيا: ويمدح نفسه بقصيدة عنوانها (في المرآة) وهي من ذات البحر السابق نظمها عام ١٩٦١، ويعدها الشاعر كذلك من الشعر الفكاهي:

نظـــــرت إلـــــى المـــــرآة يومـــــاً فســـــرني

ملاحـــــــة وجهـــــــي فانطلقـــــــت مغمغمـــــــا

إلى أن يقول:

لـــــــه أنـــــــف كليوبـــــــاترة وعيونهـــــــا

وثغـــــــر حتشبســـــــوت ووجنـــــــة مريمـــــــا

جمع الجمال كله.. الجمال الذي تميز به عظماء التاريخ.

ثالثا: وفي إحدى الشذرات بعنوان (تحدي) يقول:

هـــل مـــن مبـــارز أو منـــاجز أيهـــا المتشـــاعرون

إنـــي أنـــا الزلـــزال يكتســـح المـــدائن والحصـــون

إنـــي أنـــا المـــوت الـــذي لا بـــد تبصـــره العيـــون

هـل قـد رأيـتم ناجيـاً فـي الكـون مـن وجـه المنـون؟!

ربما ليس من حكمة الحكيم أن يفخر بنفسه أو من أن يمتليء زهواً بها، ولكن الشعر شافع لصاحبه في مثل ذلك.

١- فها هو أبو العلاء المعري يقول:

ولـــي منطـــق لـــم يـــرض لـــي كنـــه منزلـــي

علـــــى أننـــــي بـــــين الســـــماكين نـــــازل

٢- وها هو المتنبي يخاطب جدته قائلاً:

ولـــــو لـــــم تكـــــوني بنـــــت أكـــــرم والـــــد

لكـــــان أبـــــاك الضـــــخم كونـــــك لـــــي أمـــــا

٣- وها هو ابن سينا الملك المصري يقول متأثراً بهما:

ومـــــا أنـــــا راض أننـــــي واطـــــئ الثـــــرى

ولـــــي همـــــة لا ترتضـــــي الأفـــــق مقعـــــدا

ولـــــو علمـــــت زهـــــر النجـــــوم مكـــــانتي

بحـــــرت جميعـــــاً نحـــــو وجهـــــي ســـــجدا

ومن مبدأ تعاظم الشعراء وامتلائهم فخراً وزهواً بأنفسهم، فمن الملاحظ أن بعضهم قد ادعى النبوة وبعضهم قد ادعى الألوهية.... وإنني أرى كل هذا تخاريف اتسعت وتتسع لها بطانة أهل السياسة قديماً وحديثاً... ويتم حسبانها على الشطح المستظرف في الوقت الذي يشيد فيه النكير على صاحب الفكر ويحذر جانبه ويضيق عليه.. وليس تنقصنا تلك الأمثلة:

- فسقراط (Socrates) الإغريقي اتهم بإفساد شباب أثينا.

- وإيمانويل كانط (Immanuel Kant) الألماني اتهم من قبل الملك فريدريك بإفساد الشباب الألمان.

- ونقولا بيرديائيف (Nikolai Berdyaev) الروسي نفي عن وطنه خوفاً من أن يفسد المتحمسين.

الفصل الثاني

ما بين الشعر والفلسفة نسباً وصهراً لا ينفصمان!

رغم أنني رجل غير مولع بالأضواء والجلوس عدة ساعات إلى صحافي أتحدث إليه عن نفسي... غير أنني كنت أتمنى أن تتم تلك المقابلة لأتمكن أخيراً من الحديث مطولاً إلى الشخص الذي يعنيني حقاً وهم القراء العرب عامة، والقارئة الفلسطينية خاصة، تلك التي تدثرني ليلاً بلحاف من القُبل.. وتخاف علي من العنا.. ومن وحدتي.. ومن شيخوختي...

أذكر أنني قرأت عن قُبَلٍ غيرت عمراً ولم أصدق!

كيف يمكن للفيلسوف "نيتشه" وهو فيلسوف القوة، والرجل الذي نظر طويلاً نحو الجبروت والتفوق من أن يقع صريع قُبلة واحدة سرقها مصادفة في زيارة سياحية له إلى معبد في روما بصحبة الكاتبة (لو/ لويزاLou Andreas Salomé) – تلك المرأة التي أحبها أكثر من كاتب وشاعر في عصرها آنذاك – وكان أن تغزل أحدهم فيها... وبكاها كثيراً واجداً في اسمها المشابه لاسم الذئب (Loup) دليلاً قاطعاً على قدره معها...

قال نيتشه: (عندما تزورك امرأة لا تنسى أن تصحب معك العصا!) فقد كان أمام المرأة رجلاً محطماً ضعيفاً من دون إرادة... حتى أن أمه قالت يوماً: (لم تترك هذه المرأة أمام ابني سوى خيار واحد من بين ثلاثة: إما أن يتزوجها، أو ينتحر، أو يصبح مجنوناً!)

لا أدري كيف شفي نيتشه من امرأة لم يتزوجها! هل انتحر، أم أصبح مجنوناً؟!

وسط ارتباكي هذان أتذكر.. الفنان والمخترع "ليوناردو دافنشي" الذي كان قادراً على أن يرسم بكلتا يديه: اليمنى واليسرى -بذات الإتقان نفسه- وأتساءل بأي يد تراه رسم الجيوكندا (أو الموناليزا) ليمنحها كل هذا الخلود والشهرة؟!

هناك مدن كالنساء، تهزمك أسماؤها مسبقاً.. مدن كذكرى، قريبة كدمعة، موجعة كحشرة.. غرناطة بسقوفها القرميدية الحمراء.. وعرائش العنب.. وأشجار الياسمين الثقيلة.. وجداول المياه التي تعبُر غرناطة مع الشمس، مع ذاكرة العرب.. مع العطور والأصوات والوجوه.. مع سُمرة الأندلسيات وشعرهن الحالك.. مع فساتين الفرح، مع قصائد "لوركا".. مع حزن "أبي

فراس الحمداني" الذي أحبه.. غرناطة هي كل المدن العربية وكل الذاكرة العربية.. رقراقة الجبين تحمل ظلما قاهراً...

ما أشبه الليلة بالبارحة! سقوط غرناطة في الأندلس.... مرّ الزمن وصوت غرناطة ما زال يأتي كصدى نوافير المياه وقت السحر إلى ذاكرة العصور العربية المهجورة.. تفاجأتْ في المساء برحيل محبوبها ذلك الملك العربي الذي غادرها للتو..

كان اسمه أبا عبدالله.. وكان أخر عاشق عربيّ قبّلها! ذلك الملك الذي لم يعرف كيف يحافظ على عرشه! أضاعها بحماقته.. كانت أمه قد قالت له يوماً وغرناطة تسقط في غفلة منه: "ابكِ مثل النساء مُلكاً مُضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال!"

هل غرناطة جميلة حقاً إلى هذا الحد؟ وهل زرت بيت "غارسيا لوركا"؟

وضعوه أمام سهل شاسع وقالوا له (امش!) فمشى... وأطلقوا عليه الرصاص من الخلف.. فسقط ميتاً دون أن يفهم ما الذي حدث له!

كانت اللغة العربية تستدرجني تلقائياً بحريتها للقول دون عقد.. رحت أكتشف العربية من جديد، أتعلم التحايل على هيبتها، واستسلم لإغرائها السري، لتعاريجها، وإيحاءاتها. معكِ.. مع مساء حروفك التي تبعث الحياة لعاشق دنف.. انحاز لتاء الأنوثة، ولحاء الحرقة، ولهاء النشوة، ولألف الكبرياء.. وللنقاط المبعثرة على جسد أنثى بخالات سمراء..

حزيران ١٩٦٧ لا يبرح ذاكرتي! أملك أكثر من مبرر للتشاؤم منه! ذكريات موجعة ارتبطت بهذا الشهر .. أكثر من سبب وأكثر من ذكرى كانت تجعلني أتطير من ذلك الشهر الذي قضم الكثير من سعادتي على مر السنين...

كان لبداية صيف ١٩٨٢ طعم المرارة الغامضة، ومذاق اليأس القاتل، عندما يجمع بين الخيبات الذاتية والخيبات القومية مرة واحدة..

فقد جاء اجتياح (إسرائيل) لبيروت ذلك الصيف، وإقامتها في عاصمة عربية لعدة أسابيع.. على مرأى من كل ذي سلطان... ومئات الملايين من العرب.. جاء ينزل عدة طوابق في سلم اليأس...

أذكر أن خبراً صغيراً انفرد بي وقتها وغطى على بقية الأخبار.. فقد مات الشاعر اللبناني (خليل حاوي) منتحراً بطلقات نارية احتجاجاً على اجتياح إسرائيل لجنوب لبنان.. الذي كان جنوبه وحده... جنوب رفض أن يتقاسم هواءه مع إسرائيل.

كان لموت ذلك الرجل -الذي لم أكن أعره الاهتمام اللازم من قبل- ألم موجع شديد المرارة... هكذا هو الشاعر عندما لا يجد شيئاً يحتج به سوى موته.. ولا يجد ورقاً يكتب عليه سوى جسده! عندها يكون قد أطلق النار علينا جميعاً...

ذهب قلبي طوال تلك الأيام عند ذكرياتي مع الشعراء الذين هم من مثل الفراشات تموت صيفاً.. إلى الأديب الياباني (يوكيو ميشيما) الذي مات أيضاَ منتحراً طعناً على طريقة "السيبوكو" احتجاجاً على خيبة أخرى.. ميشيما صاحب كتاب بعنوان (الموت في الصيف).. ماذا لو لم يكونوا الشعراء فراشات فقط ! لو كانوا مثل حيتان البالين الضخمة يحبون الموت جماعيًّا في المواسم نفسها.. على الشطآن ذاتها؟!

وانتحر (هيمنغواي) صيف عام ١٩٦١، تاركاً خلفه مسودة روايته الأخيرة "الصيف الخطر". فأي علاقة بين الصيف وبين كل هؤلاء الروائيين والشعراء الذين لم يتلاقوا؟

واستشهد محمد رجا سمرين في صيف يونيو ٨٢...

فإلى الله ما بك يا عمر؟! وإلى الله ما بك أيها الزهر الذي قطفه الموت في أزكى شذاه.. إلى الله ما بك أيها الكبير الذي يمشي على الأرض ثم يهوى إلى حفرة أبديه اسمها القبر ولو استطعنا لكان في القلب.. بل هناك قلبان أولى بهما أن يكونا قبره: قلب والده الحزين، وقلب أمه الثكلى!

مات "محمد رجا" في مدينة بحمدون في لبنان. توقف قلبه عن العمل كما يتوقف قلب طائر النورس عن الضرب وهو على بعد خطوتين من الشمس.

كان محمد أميراً فلسطينياً جميلاً .. بذل دماؤه كي يسترجع السهول وجبال فلسطين.. كان طويلاً من أحفاد العمالقة الجبارين، وشفافاً كالدمعة.. أشجع أبناء "د. رجا" وأفضلهم..

عالي الرأس كالصواري في المراكب.. كانت تتبعه إن مشى أزهار اللوتس، وشقائق النعمان، وغزلات الصحراء.. محمد قضي.. فالله أكرمه.. يشفع عندما تشفع الرسل.

ذهب محمد بكل وسامته وملاحته وصورته اليوسفية.. خطفته امرأة من بنات السماء إلى بيتها قبل أن تختطفه واحدة من بنات الأرض... فيا سيدتي التي تخبئين محمد في غرفة نومك التي ستائرها غمام وشراشفها غمام ومخداتها غمام .. لا أعترض على زواج محمد منك! فأنا عم عصري أحترم العشق، وأقف مع العشاق في جميع معاركهم.. ولكن من حقي أن أعقد ربطة عنق محمد ليلة عرسه!

يا محمد صديقاتك في جامعة حلب منتظرات رجوعك يا سيد العشق والعاشقين.. ماذا أقول لهن؟! حبيبات عمرك.. ماذا أقول..؟!

يا لها من مرارة عند التنقيب في أوراق شاعر مات.. عند التجول في دوراته الدموية .. في نبضه.. في حزنه .. في نشوته.. عند دخول عالمه السري دون تصريح ولا رخصة منه.. عند التصرف نيابة عنه في الاختيار وفي الإضافة وفي الحذف... كنت أدري في أعماقي أنه لو كان لموت الشعراء والكتّاب نكهة حزن إضافية تميزهم عن موت الآخرين .. فربما تعزى إلى كونهم وحدهم عندما يموتون يتركون على طاولتهم ككل المبدعين رؤوس أقلام.. ورؤوس أحلام.. ومسودات أشياء لم تكتمل...

******

الرمزية في شعر الدكتور رجا سمرين

عاش شاعرنا أجواء حلقت بنية صالحة نحو الرمزية (بالمفهوم العربي، تلك الرمزية التي تغوص فيما وراء الحس وتحاول أن تعبر عما لا يمكن التعبير عنه تحت ستار من الأوهام والأحلام، وفي لفائف من الظلام والغموض).

شكل القصيدة المطروحة في الرمزيات عالية الإيقاع، فالشاعر ذو خبرة واسعة في مجال قصيدة التفعيلة ما أضاف قوة وقوة في تأثيره وتعبيره.

اشتغل شاعرنا على تناقضات المعنى ووحدة الدلالة من خلال المفارقات بين الثنائيات الضدية.. إن شكل الموت المطروح في القصائد يأخذ أشكالاً متعددة وغير مباشرة مثل: الظل، العتمة، الأغنية المكسورة، الرحيل، الحزن، المرور، الفقد، الفقر، الأحادية، الأنا المعكوسة في الحياة، فالموت يظهر كل شيء.. حتى الأسطورية منها داعبت خيوط الموت..

جلجامش الحزين على موت صديقه "إنيكدو" هام باحثاً عن الخلود عند "أوتنابشتيم"، وأدرك أن الخلود للآلهة وحدها.. أما البشر فإلى ممات، فالآلهة لما خلقت البشر جعلت الموت لهم نصيباً.. وحبست عنهم الخلود..

فمن الذي يسعى إلى إبادة الأسترةٍ وإحاطة الألثمة عن واقع تمر به؟!

وظيفة الشعر أن يدير الواقع أو يغيره، أو يغير من أمة، أو يحرضها على التغيير.. نعم، الشعر يجب أن يحرض الأمة على التغيير .. ليس لتغيير الأهداف الصغيرة ولا لتغيير ما يمزق هذه الأمة.. بل تلك الأهداف التي تجمع الامة على وحدة الهدف.. هذه الوحدة لا يمكن أن تتم إلا من خلال المثقف الذي يجب أن يصل بمهمته إلى التأكيد على أجواء الحرية..

نحن اليوم أقزام.. فالمفكر العربي قزم، بل هو أسد سيرك يرقصه هذا النظام بحلوى صغيرة، أو يوقفه نظام آخر على رجليه بعصاً.. هذه المرحلة لا بد من أن ننتهي منها ليكون للمفكر العربي دوره في إثارة الرؤيا للمستقبل.. فالأمة العربية التي لا تملك "الكبار" لن يكون لها مستقبلاً كبيراً.. وعلى الذين يقمعون المفكرين والأدباء والفنانين أن يدركوا بأنهم مسؤولون عن عقم حضارتنا الآتية والمستقبلية..

إن الشاعر أولاً وأخيراً صاحب رسالة سامية فكرية ذات قيمة، وصاحب قضية مركزية لا يجوز إهمالها والتفريط بها، فكما أن فلسطين أرض مقدسة فإن موريتانيا كذلك..

ظل الشاغل السياسي اليومي – وشئون حياة الناس اليومية هي الأكثر طغياناً على شعر الدكتور رجا سمرين... منحازاً إلى المشروع العربي الأكثر تقدمية ومنطقية.. فكان صريحاً جداً في توجهه العربي الذي يرفض الاحتلال والظلم بكافة أشكاله وألوانه.

وكان يحدث شاعرنا نفسه ويتساءل باستنكار: كيف أكون شاعراً عربياً من مواليد فلسطين وأغمر شعري بالعاطفة تعبيراً عن قضية بلدي؟! نساعد أمتنا بالشعر ما دمنا نساعد كل قضايانا بالكلام..

في الرمزيات سوف أتناول نقداً تسع قصائد هي: (الغولة والناسك) و (الذباب والعجوز) و (الهارب والأيام) و (في غرفة التحقيق) و (المشيعون والميت) و (الخريف الصفيق)، و (يا طائري) و (الشاطر).

الغولة والناسك

قصيدة رمزية نظمها الشاعر عام ١٩٧٣، من شعر التفعيلة البحر الكامل.

مد الاتحاد السوفيتي صوته دون أن يفصح عن شعاراته الكاذبة التي خدعت أسماع العرب، وهم هنا "قطعان الخراف الرتع" حيث يشبههم الشاعر بالأغنام السائمة المنشغلة بالمرعى.

عـــــوت الـــــذئاب فشـــــنقت ألحانهـــــا
أســـــماع قطعـــــان الخـــــراف الرتـــــع

أدار الاتحاد السوفيتي بصره في كل الجهات، فاستبشر العرب بقدوم الذين جاءوا من كل حدب وصوب... حتى تسللوا... فلم يتورعوا عن القدوم واحتلال فلسطين.. فانتشرت جموع النساء العربيات المهاجرات.. اللواتي إن رآهم الموتى لقاموا لإنقاذهم.. ولكن هذا لم يؤثر في العرب...

وغـــزت كـــلاب الأفـــق فـــي رأد الضـــحى
غابـــــاً يمـــــوج بكـــــل ليـــــث أروع

شبه الشاعر الأمة العربية بالغولة التي تعيش في مكان سحيق بعيدة عن المثول، تبكي بكاء مخلوطاً بآهات الأطفال المعبرة عن الحزن الذي ساد الأمة العربية..

وهنـــاك قـــرب الشـــمس خلـــف نجيمـــة
أســـــوارها جبلـــــت بمـــــاء الأدمـــــع
جلســـــت تولـــــول غولـــــة أهـــــدابها
طليـــــت بآهـــــات الصـــــغار الرضـــــع

وظلت الأمة تبكي على ما فاتها من أمجاد ماضية وتتمنى لو استمرت الأحوال متصلة بالسؤدد..

فـــــأتى إليهـــــا ناســـــك متعبـــــد
والشـــوق فيـــه يمـــوج تحـــت الأضـــلع

فجاء التاريخ وهو متشوق لإعادة هذه الأمة لماضيها.. ويقول لها في رقة: منذ أن عرفتك أيتها الأمة العربية لم أنم وأنا أسجل أمجادك وسؤددك..

ودنـــــا إليهـــــا قـــــائلاً فـــــي رقـــــة:
أنـــا مـــذ عرفتـــك غـــولتي لـــم أهجـــع
فـــاقني حيـــاءك يـــا أخيـــة واعلمـــي
أنـــــي امـــــرؤ أوذي إذا لـــــم أنفـــــع

وقد حاولت إقناع أمة اليونان من قبلك لتظل عظيمة مثلي، إلا أنها ركعت واستسلمت مثلك ولم تقاوم:

وبـــــأنني راودت قبلـــــك هولـــــة
عـــن نفســـها فجثـــت ولـــم تتمنـــع

ويقول التاريخ: أنه لا يسجل ولا يقبل إلا بالأحداث العظيمة، بل ومن هواياتي أنني أجيد التبول على الأمم الضعيفة التي لا تقاوم..

وبـــــأنني أهـــــوى العويـــــل وأعشـــــق
الإعصـــــار فـــــي المصـــــطاف والمتربـــــع
وبـــــأن خيـــــر هوايـــــة أتقنتهـــــا

هـــي أن أبـــول علـــى الهـــوام الخنـــع

وإن ما كنت تنتظرين رجوعه من علاقات مع الاتحاد السوفيتي أمر مستحيل لا يستطيع تحقيقه الإمام المراوغ السادات وقد فشل في ذلك وطرد الخبراء الروس:

وبـــأن وصـــلاً تـــرتجين رجوعـــه
عـــبء ينـــوء بـــه الإمـــام اللـــوذعي

وهنا رموز النكسة في عام ١٩٦٧ في محاولات عبدالناصر لحرب ٦٧ لاسترجاع سيناء.. جعل منها اليهود عملاً تكتيكياً تشدك أيتها الامة العربية إلى الموت والهلاك:

وبـــأن مـــا قدرتـــه بـــالأمس مـــن
فـــوز حلمـــت بـــه بـــذات الأجـــرع
قـــد حولتـــه الأكلـــب الصـــغرى إلـــى
حبـــل يشـــد خطـــاك نحـــو المصـــرع
فارضـــي بمـــا قســـم المهـــيمن واعلمـــي
أن الحـــروف تزيـــد إن لـــم ترقـــع

ارضِ بما قسم لك من الهوان (إن شئت)! ولكن اعلمي أن الأمور ستزداد سوءا إن أنت رضيت بذلك، واعلمي أن أسباب الضعف ستتراكم متتالية كشأن الثوب إذا لم يرقع يزداد اتساعاً.. وإذا رضيت ببقاء الضعف فاقبلي، ولكن اعلمي أن القضاء والقدر حليف من لا يرضى بالهوان والاستسلام:

وإذا أردت بقـــاء دائـــك فـــاركعي
ان القضـــاء حليـــف مـــن لا يركـــع

ولك أيتها الأمة العربية أن تختاري ما بين البقاء غولة ترنو إلى الجوزاء ذات تطلع...أو القبول بأن تكوني شعرة منبوذة حقيرة في رأس "زعيم" متسلط زنجي....

أو أن تحـــولي شـــعرة منبـــوذة
فـــي رأس زنجـــي قمـــيء أصـــلع

ويحذر التاريخ الأمم الضعيفة من الظلام الدامس وما تتخلله من مصائب تتزاحم عليها من الجهات الأربع..

والويـــل للنســـمات مـــن عصـــف الـــدجى
والنـــــازلات مـــــن الجهـــــات الأربـــــع

والتاريخ هنا يدعو بالرحمة من أمة غافية مستسلمة لا يوجد فيها سوى مستيقظ واحد وهو الشعب الفلسطيني:

ولتـــــرحم الأنـــــواء فجـــــراً غافيـــــاً
فيـــــه مـــــن النـــــوام صـــــاح ألمعـــــي

لازمت همة هذا الشعب الآلام، ولم ترتبط يوماً بلذة مطمع سوى استرجاع وطنه.. شعب يعيش في عواصف مستمرة تعطره رائحة تراب وطنه.. فهجره نومه ما دامت أرضه محتلة..

نشـــــأت مـــــع الآلام همتـــــه التـــــي
لـــــم تـــــرتبط يومـــــاً بلـــــذة مطمـــــع
متمنطـــــــق بالســـــــافيات مضـــــــمخ
بشـــــذا التـــــراب جفـــــا لذيـــــذ المضـــــجع

وعلى الرغم من أن الشمس مركز الضوء ومصدره؛ إلا أنها لم تساعد هذا الشعب وتدله على الطريق.. فبدلاً من ذلك كانت تسقط عليه كسفاً من الظلام بفعل الإعلام المضلل، فأغلقت أنظمة عربية لقيطة غير شرعية دروب التحرير أمام الشعب الفلسطيني..

ألقـــت عليـــه الشـــمس مـــن ظلماتهـــا
كســـــفا تهلـــــل للأثيـــــر الممـــــرع
ســـــدت عليـــــه الـــــدرب كـــــل لقيطـــــة
حبلـــــت بهـــــا أم بـــــأوخم مخـــــدع

رغم هذه العقبات التي وضعتها هذه الأنظمة اللقيطة استمر الشعب الفلسطيني في التحرير والفداء وفي ضلوعه رعد قاصف وحب للفداء ما يضيء طريق التحرير..

فمشـــــى وفـــــي دربـــــه رعـــــد قاصـــــف

وصـــــــابة تجلـــــو ظـــــلام المهيـــــع
ومضـــــى بجـــد وفـــي جوانحـــه هـــوى
يحـــــدو خطـــــاه نحـــــو تلـــــك الأربـــــع

ولتشهد الأفلاك والمجرات والبحور والكواكب أن الشعب الفلسطيني لم تردعه الأنظمة العربية ولم يخدع إلا للذي قدر سبر الأفلاك... لله تعالى الواحد القهار..

فلتشـــــــــهد الأفـــــــــلاك أن ربيبهـــــــــا
لســـــوى مقـــــدر ســـــيرها لـــــم يخضـــــع

قصيدة الذباب والعجوز

وهي قصيدة رمزية نظمها الشاعر عام ١٩٧٣، قصيدة حرة على تفعيلة الرجز.

في هذه القصيدة، التقت الجماهير الغفيرة المسحوقة في تجمع كبيير (كالذباب)، تجمعوا على غير تجانس.. فيهم الصحاب، ومنهم الأعداء.. في يد كل فرد من هذا الجمع كتاب يشكل الأيديولوجية الخاصة به والتي يؤمن بمبادئها دون فهم أو معرفة أو استيعاب ما بين سطور تلك الأيديولوجيات..

تجمعـــــوا، تجمعـــــوا، كـــــأنهم ذبـــــاب
فـــــي كـــــف كـــــل مـــــنهمُ كتـــــاب
بيـــــــنهم الأعـــــــداء والصـــــــحاب
قـــد قـــرأوا ســـطوره مـــن قبـــل أن يـــروه
مـــــن قبـــــل أن تســـــحقهم كلاكلـــــه
لكـــنهم لا يعرفـــون مـــا ببـــاطن الســـطور
ويجهلـــــون مـــــا يخبـــــيء العجـــــوز

وعلى الرغم من اختلاف أيديولوجيات الجمع الغفير أمام النظام الصارم والمستبد.. ظل هذا النظام يتساءل عن الكاتب والشاعر والمثقف..

ومـــرت الأيـــام والعجـــوز مـــا يـــزال
يمضـــــــــــــغ الســـــــــــــؤال

إلــى متــى يظـل هـذا الـنجم يركـب المحـال؟!

وبقي يتساءل عن المثقفين وهم يلقنون الكواكب المثلجة رمز التراث والأفكار حتى قابلهم عاشق الشجر وقائد الثورة أو المخلص الشاطر منسق أوسلو الملك الحسن صاحب مقولة :"لو اجتمع العقل اليهودي، والمال العربي، لتحول الشرق الأوسط إلى جنة" وكان ضد العمليات العسكرية لسحق الجرذان، سحق اليهود..

ورفـــــع العجـــــوز رأســـــه الكبيـــــر
ومـــــد نحـــــو الأفـــــق كفـــــه الصـــــغير
وراح يقطـــف النجـــوم نجيمـــة، نجيمـــة
ويمـــلأ الجعبـــة مـــن لآلـــى الســـماء
وظـــل طـــوال الليـــل يقطـــف النجـــوم
ويأكـــــــل الكواكـــــــب المثلجـــــــة
ويشـــــــــرب الفضـــــــــاء....

وهنا استل من حزامة زهرة أقحوان وقذف العجوز بها:

... حتـــــى رآه عاشـــــق الشـــــجر
فهالـــــه مـــــا يفعـــــل العجـــــوز
فاســـتل مـــن حزامـــه زهـــرة أقحـــوان
وقـــــــــذف العجـــــــــوز

خر العجوز فوق الأرض ساخطاً.. يقول:

مـــــــا اظلـــــــم الـــــــورود
مـــــــا أظلـــــــم الـــــــورود

قصيدة الهارب والأيام

قصيدة رمزية من البحر المتدارك، نظمها الشاعر عام ١٩٧٣.

الهارب والأيام قصيدة رمزية خاصة يعبر بها الشاعر عن خيبة أمله وعن تشاؤمه.. فالشاعر كأي مخلوق آخر يعيش في مد وجزر وما تحمله بيئته من أحداث.. فيشعر بالتشاؤم لأنه لم يستطع أن يحقق كل ما يصبوا إليه ..

الهارب هنا هو الشاعر المتشائم، الهارب من التبعات ومن غرف المخابرات.. فهو لا يمكنه الهروب من الزمن.. وكأن الأيام كشرطي المرور يرفع إشارات الممنوع أمام تحقيق الأهداف...

تخلق الأيام فيه طموحات جديدة تزيد من عذابات الشاعر.. وتقضي على أحلام اليقظة التي تتراءى أمام عينيه... فتدفعه الأيام إلى سلوكيات قد يراها الناس لا معقولة ... فتأخذ بيده إلى ما يجهل من الاتجاهات وتدفع به نحو المجهول..

وهربت وما زالت تجري خلفي الأيام
تقذفني بالنور الأحمر
تلهبني بسياط الرغبة
وتبدد من عيني الأحلام
تدفعني نحو اللامعقول
وتشد خطاي إلى المجهول

والشاعر في ساعات اكتئابه يتوارى في كوخ أصفر حزين حتى لا يشمت به الصحاب، يتوارى هناك مع الهولة والغولة ومع العقبة الكبرى ومع المجهول ومع التراث...

وأعود إلى كوخي الأصفر
في أقصى القرية قرب العين
أتوارى كي لا يبصرني أحد الأصحاب
لكن عيون الأصحاب
تبصر ما خلف الأسوار
تهتك أستار الأحجار...

ويقول:

وأعود إلى الدرب المسدود
والهولة والثدي الممدود
لكن الهولة ما عادت تجثم في الدرب
الدرب غدا أفعى كوبرا تلتف على ثدي الهولة
والهولة تصرخ في فزع: من ينقذني من هذا الدرب؟!

وفي النهاية، يعود الشاعر إلى الحالة النفسية السوية بعد أن استطاع انقاذ الهولة من الأفعى التي تم خلاصها من الكوبرا.. وطارت ولم تعد عقبة كبرى.. وعاد الشاعر ليعيش حياته مع الأيام!

... وأســـــــــــــــل النـــــــــــــــاي
وأغنـــــــــــي لحنـــــــــــاً علمنيـــــــــــه
حـــــــــــــــاوي القريـــــــــــــــة
لحنـــــاً هنـــــدياً تعرفـــــه أفعـــــى الكـــــوبرا
وتفـــك الأفعـــى قبضـــتها عـــن ذاك الثـــدي
وتحـــــــــس الهولـــــــــة بالفرحـــــــــة
وتعيـــر الـــريح جناحيهـــا وتطيـــر، تطيـــر..
وينـــــــام الـــــــدرب مـــــــع الألحـــــــان
وأســـــــير أســـــــير مـــــــع الأيـــــــام
وتعـــــــود إلـــــــى نـــــــايي الأنغـــــــام

المؤرخون والشاهدون على العصر وأصحاب الأدب والإعلاميون يشهدون - في رواياتهم وفي طيات كتبهم وعلى صفحات صحفهم ومجلاتهم- على الحال الذي كان سائداً في البلاد أثناء تلك الفترة من الزمن المحصورة من أواخر الأربعينيات وخلال عقود الخمسينيات والستينيات: كان الحال في الأردن ينخل إلى ثلاثة أمور.. كل أمر منها خليق بالتفكير الطويل، والتأمل العميق لأن لكل منها أثراً ذا أبعاد متعددة في أحداث تلك الحقبة على اختلافها.

الأمر الأول: فساد السياسة، وظهر فساد السياسة في ظاهرتين خطيرتين: الأولى: الأحزاب في الأردن: توزع النشاط السياسي الحزبي على الساحة الأردنية في الضفتين على عدة تيارات أيديولوجية على الشكل التالي:

التيار الإسلامي: وتمثل بقوة في "حزب التحرير"، وفي جماعة "الإخوان المسلمين"، وقد كانا من ألد خصوم التيار اليساري بكل أطيافه.

التيار القومي: وكانوا أعنف المنتمين إلى أقصى اليسار الثوري ويمثله البعثيون بطوائفهم والقوميون العرب والقوميون السوريون.

التيار اليساري: ويمثله الشيوعيون وأنصار الجبهة الوطنية.

وكان إلى جانب تلك الأحزاب العقائدية أحزاب أخرى هزيلة استمدت هزالها وهامشيتها أمام الأحزاب العقائدية وتلك من الأسباب التي دعت إلى إنشائها. فقد تم تأسيس تلك الأحزاب أصلاً لإجهاض التجربة الحزبية القوية حينذاك ولمحاصرتها.

وفي ذلك، يقول هزاع المجالي: "قمنا للدعوة لتأسيس الحزب الوطني الاشتراكي بمبادئ تقرره للحيلولة دون ترك مجال للشيوعيين وللبعثيين الاستفراد وحدهم بالعمل الحزبي المنظم[١]".

وكان هناك أمناء أحزاب ورثوا الحزبية عن آبائهم، فارتبطت أحزابهم بالولاء للعشيرة، فانحصر التيار الحزبي بيد الأغنياء القادرين على استئجار الدور الفخمة وعلى استمالة وشراء العناصر البشرية لأحزابهم!

أمام هذا الوضع الحزبي؛ سمح في الأردن بتشكيل الأحزاب السياسية.. وكان من أهمها الحزب الوطني الاشتراكي في السابع من تموز عام ١٩٥٤م. تبنى هذا الحزب طموحات الشعب في الضفتين وجاهد بأن يعمل على تحقيقها وهي المتمثلة في :

- اسقاط الأحلاف المشبوهة وخاصة حلف بغداد.
- تعريب الجيش الأردني والغاء المعاهدة البريطانية.
- تضامن عربي أمني وعسكري واحد بين الأردن وسوريا ومصر والعراق.

وتوالت الأحداث واشتدت حلقات الظلام وتشكلت حكومات كانت سرعان ما تُقال ولم يمض على إنشائها سوى أيام معدودات أو شهور يتيمة، فسيطرت الشكوك وتفاعلت الظنون وأُقيلت حكومة النابلسي بعد تشكيلها بخمسة شهور وفرضت الأحكام العرفية بتاريخ ٢٤ نيسان سنة ١٩٥٧م، وبدأ تطبيق قرار مقاومة الشيوعية على النحو المطلوب أمريكيا!

الأمر الثاني: ويتعلق بالحكومات الأردنية؛ فقد كانت تلك الفترة فترة عصيبة على الشعب الأردني.. ففي نهاية عام ١٩٥٥ تزايدت المظاهرات الشعبية بسبب محاولة الزج بالأردن في حلف بغداد الاستعماري، وكان هزاع المجالي رئيس الوزراء حينذاك قد اعتقل رفيقه في تأسيس الحزب الوطني الاشتراكي بتهمة التحريض والمشاركة في المظاهرات التي عمت العاصمة عمّان ومدن وقرى الضفتين في منتصف كانون الأول عام ١٩٥٥، وأعلن المجالي دون مواربة عن نيته في إقحام الأردن بالحلف مع تركيا والعراق للتصدي للشيوعية. فتفاقمت الأمور في البلاد، وامتدت المظاهرات ضد هزاع المجالي وضد الحلف حتى أرغم الشعب

هزاع المجالي على الاستقالة بعد خمسة أيام من تأليف وزارته! ما زاد من نشاط الحركة الوطنية بقيادة الأحزاب الجماهيرية وقتذاك: الحزب الوطني الاشتراكي في طليعتهم ومعه بقية الأحزاب العقائدية وعناصر وطنية كثيرة مستقلة.

---

(١) انظر (جولة في ملفات الحياة السياسية في الأردن) للأستاذ زياد أبو غنيمة.

كانت غالبية رجال الحكومة في تلك الفترة لا يملكون الجرأة والشجاعة على تحمل المسؤولية، وكان دورهم دوماً وظيفياً يجمعون بين مصالحهم الخاصة وبين السياسة مستغلين وظيفتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية أسوأ استغلال على حساب الأردن والشعب في الضفتين.

الأمر الثالث: جلوب باشا؛ كانت المجموعة المسؤولة عن الأجهزة الأمنية في الأردن في تلك الفترة تحت إشراف وإدارة القائمقام الانجليزي "باتريك كوجهل" الرجل الثاني بعد جلوب باشا رئيس أركان الجيش الأردني لمدة ٢٦ عاماً، وكانت تلك الأجهزة قد شططت في اتهام الناس وحبسهم وتعذيبهم وسجنهم لمدد طويلة! فكان مجرد الاستماع إلى إذاعة صوت العرب من مصر هو محل اتهام يبرر الاعتقال والضرب والتعذيب من قبل أشخاص أميّون جهلة، وكان من يعتقد بالطروحات المصيرية السائدة في ذلك الوقت مثل وحدة الأمة، وتحررها من التبعية الأجنبية يوصم بالشيوعية ويجرى اعتقاله وسجنه وتعذيبه!!

ومما زاد العيش والحياة أوحالاً حينذاك أن استعانت تلك الأجهزة بخبراء ألمان لاستئصال التيار الوطني من البلاد مستخدمين أساليب جديدة في التحقيق مع المعتقلين في تعذيبهم يضغطون عليهم حتى يكتشفوا عوراتهم الاجتماعية وخصوصياتهم!

قصيدة في غرفة التحقيق

ومن وحي هذه الأحوال المشينة – التي لا تشرف حكومة ولا نظاماً- أن انبعثت قريحة شاعرنا رجا عن قصيدة رمزية من شعر التفعيلة الواحدة.. سماها (في غرفة التحقيق) وهي قصيدة حرة تعتمد على تفعيلة بحر الرمل نظمها عام ١٩٧٣ يقول فيها:

جـــــاءوا بـــــه يرســـــف فـــــي الأغـــــلال

وأدخلـــــــــــوه غرفـــــــــــة التحقيـــــــــــق

والسبب:

متهمـــــــــــا بـــــــــــالكفر والضـــــــــــلال

والطعـــــــــــن والتجـــــــــــديف والمـــــــــــروق

والثـــــــــــورة الحمـــــــــــراء والتـــــــــــآمر

علـــــــــــى نظـــــــــــام الحكـــــــــــم والمفـــــــــــاخر

وشاعرنا في قصيدته هذه بدلاً من أن يعطي للمتلقي لمحة عن التعذيب ووسائله، ويترك له أن يسرح ولو من نافذة ضيقة – ضيق نافذة الزنزانة التي يقبع فيها المعتقل– إلى أفق أوسع يتخيل فيها طرق التعذيب والإذلال في تفصيل نثري، فقد أعطى الشاعر أكثر من ستة عشرة وسيلة للتعذيب...

لا تخلعـــــــــــــــــــوا أظـــــــــــــــــــافري

لا تطفئـــــــوا النـــــــور بأعمـــــــاق فـــــــؤادي الشـــــــاعر

لا ترعشـــــــــــــــوا جســـــــــــــــمي بالتيـــــــــــــــار

لا تمـــــــــــــــلأوا أنفـــــــــــــــي بالبخـــــــــــــــار

لا تنشـــــــــــــــروا يمنـــــــــــــــاي بالمنشـــــــــــــــار

لا تخرقـــــــــــــــوا أذنـــــــــــــــي بالمســـــــــــــــمار

لا تنزعـــــــــــــــــــوا أســـــــــــــــــــناني

لا تفرمـــــــــــــــــــوا بنـــــــــــــــــــاني

لا تأخـــــــــــــــــــذوا بســـــــــــــــــــلمتي

ولا تجـــــــــــــــــــزوا لحيتـــــــــــــــــــي

لا تطفئـــــــــــوا الســـــــــــيجار فـــــــــــي جبينـــــــــــي

لا لا ترشـــــــــــوا الملـــــــــــح فـــــــــــي عيـــــــــــوني

لا تغمـــــــــــــــروا رأســـــــــــــــي بالميـــــــــــــــاه

في أسطر ثلاثة من ذات القصيدة يبين الشاعر مدى قبح الحياة إذا ما مورست تلك الوسائل عليه:

لا تســــــــــــــــــحقوا مشـــــــــــــــــاعري

لا تطفئـــــــوا النـــــور بأعمـــــاق فـــــؤادي الشـــــاعر

فيمتلئ سمع المتلقي ويطوف بصره بكل وسائل التعذيب وأجهزته وإداراته فيستوعب صورة المعتقل بعد التعذيب... في سطر بنهاية المقطع وقد اختفى الزمان والمكان خلف وسائل التعذيب يقول شاعرنا:

لا تجعلـــــــــــــوني أكـــــــــــره الحيـــــــــــاة

ندوب فوق الجسم، وعقد في النفس، وصغار في الشخصية تجعل المعتقل إنساناً لا يحب الحياة..! وفي جرأة طرح، وفي صلابة موقف، وفي صفاء ذهن أوهم المحققين الحمقى أنه بتآكل معنوياته قد قرر الاعتراف، فأرخوا له آذاناً كآذان القرود، وفي سخرية ومرارة من واقعهم المزري قال لهم:

ســأعترف

ســأعترف

أنـــــا الـــــذي لكـــــل مـــــا ذكرتمـــــو قـــــد اقتـــــرف

فهيـــــــــــــــــأوا الأوراق والأقلامـــــــــــــــــــا

وســـــــــــــجلوا الـــــــــــــذنوب والآثامـــــــــــا

وشاعرنا في اعترافاته يرسل رسالة ناجعة إلى خبراء منظمة علماء النفس في العالم، والعسكريين من مدرسي سيكولوجية التعذيب؛ أنه لمن السخرية.. بل من السذاجة الاعتقاد بأن التعذيب يكون فعالاً في إنجاح التحقيقات وإرغام الفرد على البوح والاعتراف... شاعرنا في موقفه ذاك قد اختلق اعترافاً مبطناً يزهو به.. يفاجئنا – وسط سخريته اللاذعة بالحمقى المرضى بعطش دنيء إلى التعذيب... فينطلق الشاعر بنا وبهم إلى دنيا أخرى.. إلى عالم شعري ساحر.. فشاعرنا يشعر بقوة أنه لا يمت بصلة إلى عالم المحققين ذاك، علاقات الشاعر في كينونته ووجوده إنما ترتبط بعالم آخر لا أحد من هؤلاء الغفل يعرف عنه شيئاً.. فكانت

ثورة الشاعر في وجوههم.. فيعرض عليهم في ثورته بانوراما سينمائية جميلة عن عالمه الجميل، عن عالم رائع ووديع ينتمي إليه بكل جمال، يكسو الحياة والأحياء، عالم الأمن والحب والحياة والرجاء...

أنـــا الـــذي لونـــت وجـــه الأفـــق بالرســـوم

أنـــا الـــذي رصـــعت صـــدر الشـــمس بـــالنجوم

أنـــا الـــذي رحلـــت فـــي الخيـــال فـــوق ســـابح الغيـــوم

أنـــا الـــذي صـــعدت فـــي الســـماء

وطـــرت خلـــف بـــارق الرجـــاء

أنـــا الـــذي قـــد وشـــوش الفراشـــة

ونـــادم الحســـون فـــي بشاشـــة

أنـــا الـــذي غنيـــت للربيـــع

أنـــا الـــذي قـــررت أن أكـــون للجميـــع

أوزع الحنايـــا

وأمـــنح الأمانـــا

أنـــا الـــذي أحبـــه الصـــغار

ورددت غنـــاء الأطيـــار

وبـــاح للـــورود بالأســـرار

أنـــا الـــذي آمنـــت بالســـلام

والحـــب والئـــام

أنـــا الـــذي بســـمت للصـــباح

وقلـــــــت شـــــــعراً فـــــــي هـــــــوى المـــــــلاح

وهنا ينعطف الشاعر متهكما بالأوغاد. فيلوم نفسه ويوجه إليها العتاب لأنه لم يكن في حسبانه أن في الإنسانية قطعان من الوحوش تحمل وجوهاً بشرية فيها من البشاعة ما تنفر الإنسان أن يحيا ويعيش...

أنـــــــا الـــــــذي تجشـــــــم الصـــــــعابا

أنـــــــا الـــــــذي قـــــــد جانـــــــب الصـــــــوابا

وأخطـــــــــأ التقـــــــــدير والحســـــــــابا

إذ ظـــــــن أن الحـــــــق فـــــــي الحيـــــــاة

حـــــق كـــــل مـــــن يـــــدب مـــــن بنـــــي البشـــــر

والزهـــــــــــــــر والشـــــــــــــــجر

والنـــــــــــــــاي والـــــــــــــــوتر

وفي لغة شفافة يتدفق شعره ضارباً على الوتر الحساس والقلب المفعم بالحياة فيواصل سخريته في جلاوزة التعذيب والتحقيق، ويهزأ بهم، ويعلن على مسامعهم الأوصاف الدامغة لهم وما جبلت عليه نفوسهم من نفاق وحب اعتداء واغتصاب..

أنـــــا الـــــذي لـــــم يستســـــغ عـــــواء كـــــل كلـــــب

أنـــــا الـــــذي لـــــم يحســـــن الســـــير بكـــــل درب

أنـــــا الـــــذي لـــــم يـــــتعظ بمـــــا جـــــرى للنـــــور

حـــــين تـــــولى هاربـــــاً مـــــن لجـــــج الـــــديجور

ولا بمـــــــــا قـــــــــد حـــــــــل بـــــــــالهزار

غـــــــــداة غنـــــــــى لحنـــــــــه للـــــــــدار

ولا بمـــــــــا قـــــــــد حـــــــــاق بالأزهـــــــــار

إذ ضـــــــاع منهـــــا العطـــــــر فـــــــي البـــــــراري

والشاعر وهو يتحدث عن ذلك، وفي صورة تتجاوز الزمان والمكان، ينتقل مستبشراً فرحاً – وهذا ما يزيد في استفزاز الجلادين آنذاك– بالحديث عن رغبات الشاعر التي تحققت على شاشة حلم جميل ضم أولئك المحققين وجلاوزة التعذيب، وهو يعرف أن مزاولة الأحلام في المنام أو حتى في اليقظة حرام على الشعراء في عرفهم، فالحلم عندهم من الشيطان، وهو –أي شاعرنا– يعتبرها رؤيا من الله وجزءا من النبوة.

أنـــــــا الـــــــذي حلمـــــــت ذات ليلـــــــة

بـــــــأنني أنـــــــام فـــــــي ســـــــرير

فراشـــــــــــــــه حريـــــــــــــــر

فـــــي غرفـــــة ســـــحرية لقصـــــري الكبيـــــر

ذاك الـــــذي تصـــــدح فـــــي جناتـــــه القيـــــان

تمـــــيس فـــــي أبهائـــــه الحســـــان

تمـــــرح فـــــي أرجائـــــه الغلمـــــان

تطـــــوف بـــــي تقـــــول لـــــي لبيكـــــا

يـــــا ســـــيدي ســـــعديكا

مرنـــــا تجـــــد لـــــديكا

مـــــا تبقـــــى مـــــن ثمـــــر الجنـــــان

والوصـــــــل والأغـــــــاني

الأحلام عند شاعرنا وعند غيره من الشعراء هي بمثابة منارات هادئة إلى الأهداف المرجوة في الحياة عندهم.. يحققونها بشحذ الهمم وبالكد المتواصل والعمل الدؤوب...

لكنني أفقت في الصباح

فلم أجد قربي سوى بناتي

وأخوة لهن كالأقاحي

زغبا صغاراً كبني القطاة

وأمهم تقول في انشراح

لا تبطئوا حي على الفلاح

والأمل المرجو والنجاح

والحب والسرور والأفراح

كما أشرنا سابقا أن الأحلام أو أي نشاط عقلي أثناء النوم وخلال اليقظة ممنوعان على الشرفاء عند أولئك الأوغاد.. فهنا يصيح أحدهم وقد تملكه جنون البربرية والوحشية بالشاعر.. وتلى إدانته التي تقررت قبل التحقيق معه..!! ومن ثم تقرر الحكم عليه:

وصاح منهم صائح عتل

كفى كفى قد ملئ السجل

إنك يا هذا خطير جداً

وحلمك المرعب جاز الحدا

حلمك يا شاعر امبريالي

وهو يثير عصبة العمال

ويحفز الزراع للنضال

ويـــــــــــدفع الطـــــــــــلاب للتظـــــــــــاهر

والجـــــــــــيش للثـــــــــــورة والتنـــــــــــاحر

هـــــــذا عـــــــدا عـــــــن ســـــــائر الجـــــــرائم

ومـــــــا ارتكبـــــــت قبـــــــل مـــــــن مـــــــآثم

هؤلاء القوم – وهكذا يعتقدون– يتفوقون على العلماء في دوائر الباراسيكولوجي فيدعون أنهم يعرفون، وهم الجهلاء الأميون، يعرفون من أن تجيء الأحلام وعلاقاتها مع المستقبل وهم على دراية – كما يعتقدون– وعلى علم يساعدانهم في تفسير الأحلام وكشف المحتوى الباطن له..

فـــــــاقبع هنـــــــا فـــــــي ظلمـــــــة الغياهـــــــب

وعـــــــش مـــــــع النمـــــــال والعناكـــــــب

فالســـــــجن إصـــــــلاح لكـــــــل كاتـــــــب

وشـــــــاعر مهـــــــيج مشـــــــاغب

يحلـــــــم بالريـــــــاش والكواعـــــــب

والعـــــــيش فـــــــي القصـــــــور والجنـــــــان

والحـــــــب والســـــــلام والأمـــــــان

نَفَذَ الحكم، فهم وراء كل قانون.. يتجاوزون الحدود ويصدرون الأحكام متجاهلين قضاة العدل جاعلين منهم وبإحكامهم أضحوكة مزرية!

إن دارس ديوان (الأعمال الشعرية الكاملة) للشاعر الدكتور رجا سمرين يجد أن الشاغل السياسي اليومي وشئون حياة الناس اليومية هي الأكثر طغياناً على شعره..

استطاع شاعرنا في قصيدته (في غرفة التحقيق) وهي قصيدة تتوالى على امتداد سطري في الصفحة، وتستمر الأسطر لتظهر القصيدة كأنها صفحة من الكتابة النثرية، لكن إيقاع التفعيلة لا يمكن أن يختفي على متذوقي الشعر: إيقاع التفعيلة فيها شديد البروز فيتطابق الشعر مع

الموسيقى من حيث الإيقاع ويزيد في جمال هذا الإيقاع في قصيدة الدكتور رجا قافية اتخذها من كل حروف اللسان العربي ونثرها نثر الورود في سطور قصيدته ذات التفعيلة الواحدة ... استطاع شاعرنا أن يربح – بما لديه من مهاد ثقافي في اللسان العربي ومن موهبة شعرية فطنة يربح في هذا الأسلوب.

لا زلت أتحدث عن الحال الذي كان سائداً في البلاد أواخر الأربعينيات وخلال عقود الخمسينيات والستينيات؛ تناولت فيها ثلاثة أمور، كل أمر منها حال خليق بالتفكير الطويل والتأمل العميق، لأن لكل منها أثراً ذا أبعاد متعددة في أحداث تلك الحقبة على اختلافها.

وهنا أكمل الحديث في الحال الثالث المتعلق بالإنجليزي جلوب باشا.. في تلك الحقبة المشؤومة من تاريخنا، كان جلوب الأبرز أثراً وتأثيراً في سياسة البلاد الداخلية والخارجية مما حدا بإحدى الصحف البريطانية أن تطلق عليه لقب "ملك البلاد غير المتوج"... كان جلوب مكروهاً حتى الموت من قبل الحركة الوطنية، بل ومن قبل الشعب أجمع حتى قام الملك الحسين – المغفور له بإذن الله– بطرده شر طردة من البلاد. فغادرها حيث لا رجعة في فجر الثاني من مارس عام ١٩٥٦م مع باتريك كوجهل وجميع الضباط الانجليز لأسباب أذكر منها:

١- كان يتعمد تقييد حركة الجيش الأردني في مقارعة يهود في الحرب ويبث في الجنود روح الهزيمة مما سهل على يهود استلام المدن الفلسطينية اللد والرملة عن دون قتال، بل ومن كسب الحرب فيما بعد أيضاً.
٢- شدته في قمع المتظاهرين، فلا تمر مظاهرة إلا ويقتل فيها عدد من أفراد الشعب إلى جانب الجرحى والمعتقلين بأوامر منه ومن ضباطه الانجليز.
٣- كان دائما ضد الرأي المستنير ومع هدر حقوق الآخر والإيقاع بين طبقات الشعب وأفراده! فكثرت الممارسات الخاطئة المقصودة وغير المقصودة على المستويين الحكومي والشعبي، فساد التميز والتعصب والظلم.. وانتشرت الإقليمية والعشائرية الفجة والانتمائية الجهوية والحزبية.
٤- كان من عاداته متابعة أفراد بتتبعهم ممن عرفوا بالشرف والفكر.. يستدعيهم إلى مكتبه إما للتوبيخ والتهديد وإما للاعتقال.. وما قصة استدعاءه للشاعر عبدالرحمن رباح الكيالي إلى مكتبه أواخر عام ١٩٥٤ إلا واحدة من القصص الكثيرة. وكان أن رفض الشاعر عبدالرحمن الكيالي مقابلته وغادر الأردن إلى سوريا تحاشيا لبطش جلوب به. وظل الحال قميئاً مكروهاً هكذا حتى قام المغفور له بإذن الله الملك الحسين الثاني بطرده من البلاد كما أسلفنا.

قصيدة المشيعون والميت

وهي قصيدة حرة من شعر التفعيلة: بحر الرجز.

الميت المدفون هو شاعر لم يأخذ حقه وهو حي... يعاتبهم.. شاعر لم يكن يستعذب سماع الأدب المكرر الذي ليس فيه جديد. لم يعد يستعذب أدب الكُدية – ويطلق عليه أدب الحيلة والتسول واستجداء المال – وكان هذا الأدب أحد أبرز ظواهر المجتمع العباسي في عصوره الأخيرة.

ساهمت الكدية في ازدهار المقامات وهي حكايات قصيرة جمعت بين النثر والشعر وبطلها رجل وهمي، ومن أمثلتها مقامات بديع الزمان الهمذاني يرويها ساردا واحدا وبطلها واحد يقص فيها قصيدته. ومقامات الحريري... وبعد قص الحكاية يبدأ في الشحاذة ولم الغلة، ويمتاز البطل فيها بالخفة والذكاء وحسن التخلص ثم يعلن عن نفسه في نهاية الحكاية.. ظل هذا الأدب على حاله حتى عصر النهضة.

كان في استقبال الشاعر الميت مجموعة من شعراء الجاهلية والصعاليك وآخرين ممن قالوا في الفخر بقبائلهم ودعموا خطاب وأفكار السلطة بين الجماهير.

والصعاليك هم مجموعة من الشعراء المعروفين بعدم انتمائهم لسلطات قبائلها وواجباتها، فطردوا منها- وقد كانوا يغنمون ويوزعون ومن هنا كانت اشتراكيتهم، من أشهرهم عروة بن الورد العبسي وهو داع إلى الاشتراكية. أما طرفه بن العبد وهو من شعراء المعلقات فقد عرف بجرأته حيث بلغ الملك عمرو بن هند أن طرفة هجاه بأبيات.. فأمر بقتله. أبو نواس وهو شاعر مجدد ثار على التقاليد. والفرزدق وجرير والأخطل شغلوا الأمة بأهاجيهم المتبادلة والتي سميت بالنقائض ليلهوا الناس عن الحديث حول الخلافة والحديث عن الخلاف بين علي -كرم الله وجهه- ومعاوية.

لقد حافظ شاعرنا رجا على تقاليد القصيدة العربية في نماذجها العباسية والجاهلية. ودرس هذا الشعر من النقاد العرب كثيرون. فوجدوا فيه شعرا عربياً رصينا.. على الرغم من خروج أقوال بالدعوة غلى الأدب القومي الدال على أدب من آداب الشعوب..

وعلى سبيل المثال؛ الدعوة إلى أدب قومي بملامح سودانية، وإن كان هناك من الشعراء السودانيين ممن بدأوا مسيرتهم الشعرية في مصر وكانوا من ركائز قصيدة التفعيلة مثل تاج السر الحسن، ومحمد الفيتوري، ومحيي الدين فارس، فكان لهم تجربة مميزة لقيت انتباه النقاد العرب وانتقل تأثيرهم إلى عدة أقطار عربية.

وجاء جيل السبعينات كمال الجزولي، والشاعر عالم عباس كانت لهم إضافاتهم على تجربة رواد شعر التفعيلة، وكتب بعضهم قصيدة التدوير.

والآن تتحاور في السودان الأشكال الشعرية المختلفة وآخرها قصيدة النثر التي يكتبها عبدالله حلاب ونجلاء عثمان وربيعة هارون وهي تجسد على طريقتها ذلك التوق إلى الحداثة!

نستعرض بعض الأبيات الشعرية من قصيدة المشيعون والميت :

طـــــــــــــــــــــــــــوبى لكـــــــــــــــــــــــــــم

طـــــــــــــــــــــــــــوبى لكـــــــــــــــــــــــــــم

يأيهـــــــــــــــــــــــا المشـــــــــــــــــــــــــيعون

وعظـــــــــــم الله لكـــــــــــم أجـــــــــــركم الثمـــــــــين

فقـــــــــد دفنـــــــــتم شـــــــــاعراً معـــــــــذباً حـــــــــزين

لـــــم يلـــــق فـــــي حياتـــــه مـــــنكم ســـــوى الجحـــــود

فعـــــاش فـــــي صـــــفوفكم مشـــــرداً طريـــــد...

****

... بـــــالأمس بعـــــد أن دفنتمـــــوه جـــــاءت الوفـــــود

وفـــــود مـــــن تقـــــدموه مـــــن بنـــــي القصـــــيد

الملـــــــــك الضـــــــــليل فـــــــــي المقدمـــــــــة

وكـــــــان فـــــــيهم عـــــــروة بـــــــن الـــــــورد

وطرفـــــــــــــــة بـــــــــــــــن العبـــــــــــــــد

والحســـــــــــــن بـــــــــــــن هـــــــــــــاني

والمتنبـــــــــــــي وأبـــــــــــــو تمـــــــــــــام

وسـيد المعـرة الجليـل

وغيـرهم كثيـر

مـن كـل فحـل شـاعر وصـادق أصـيل

وهنـأوا أخـاهمو بـالعودة المباركـة

مـن ذلـك الرحيـل

وقـال مـنهم شـاعر فـي لهفـة المشـوق

كيـف تركـت الشـعر قبـل أن تجـيء؟

وفـوجيء العائـد بالسـؤال

وقـال والـدموع فـي عينيـه إنـه بحـال...

الشـعر لا يـزال مثلمـا عهـدتموه

تصـنع مـن جلـوده أحذيـة الملـوك

تصـاغ مـن تصـاغ مـن عيونـه لآلـيء البغايـا

تـزرع مـن بـذوره مـزارع الأوقـاف والتكايـا

توقـد مـن نيرانـه مجـامر البخـور

الشـعر لغـو فـارغ خـال مـن الإحسـاس

خـال مـن الشـعور...

قصيدة الخريف الصفيق

وهي قصيدة رمزية من شعر التفعيلة بحر الرجز.

يسود الخريف صفاقة وحماقة وعواصف مدمرة... فدمر البستان من غصون وألحان.. والوطن بكل مقوماته الجمالية.. فأطفأت أنواره وأظلمت آفاقه واختفت طيوره لتظهر بدلا عنها الغربان فتنثر النعيق القبيح... أي يتوقف غناء الشعراء الأحرار... ولكن الوضع القبيح لن يدوم حتى يصبح الوطن جديراً بأن يعيش كما يحب.. ويزول الحجر على الناس بالسكوت وبعدم التعبير...

يأيهـــــــا الخريـــــــف يـــــــا صـــــــفيق

مـــــــا هـــــــذه الحماقـــــــة الرعنـــــــاء

وهـــــــذه العواصـــــــف الهوجـــــــاء

شـــــوهت وجـــــه الصـــــبح يـــــا قبـــــيح.....

... ســـــــــــــــــــيقبل الربيـــــــــــــــــــع

بحســـــــــــــنه المنـــــــــــــق البـــــــــــــديع

ليبعـــــــــث الحيـــــــــاة فـــــــــي الجميـــــــــع

قصيدة يا طائري

وهي قصيدة رمزية من شعر التفعيلة، البحر السريع نظمها الشاعر عام ١٩٥٨م وجهها الشاعر نحو الخفافيش التي لا تعيش إلا في الظلام...

تشير القصيدة إلى حوار وجداني، فهو تارة يتحدث مع طائر، وتارة مع ذات غيرية.. ليس في وطنك ما يحفزك على قول الشعر أي يطلب من الشاعر الحر أن يكف عن قول الشعر. لم يعد هناك من جمال يثير، ولم يعد في الرياض طيور تغرد في الأجواء ألحان السرور. وتحول الربيع إلى خريف واختفت الطيور فلا خرير مياه.. فابك على أزهار الروح التي ينشر فيها

الشاعر المتملق لحن اليأس من الحياة.. ألحان الموت اتركه يمجد القبيح يهتف بالفناء ويلعن الحق ويزيد حدة الشرور..

لا تيأس يا شاعري فالربيع يخلف الخريف مصطحباً معه الخير والعشب الأخضر الجميل، ويحرر المياه وهي ترقص داخل جداولها فتبتسم الأزهار ناشرة روائح وعطور ... عكس ما أراده شاعر التملق الذي يعيش مع خفافيش الحلكة

كف عن التغريد يا طائري فلم يعد في الروض حسن مثير

قد أظلم الأفق وغاص السنا وعم هذا الجو غيم كثير

أما ترى الأغصان قد جردت ومات في الجدول لحن الخرير

فلم يعد في الروض من طائر يطلق في الأجواء لحن السرور

قصيد الشاطر

نظم الشاعر هذه القصيدة الرمزية عام ١٩٩٧، وهي من شعر التفعيلة البحر المتدارك.

قد يكون هذا الشاطر من أرباب التطبيع أو حاكم من الحكام.. قد فشل الشطار الحقيقيون وأعداء التطبيع في قيادة الامة نحو القمة ما أثار غضب أحد الانذال ... فانهال بالكرباج على الشعب لقمعه... يقول منها:

وقف الشاطر يخطب في الناس

بدأ الخطبة باسم الله ولعن الوسواس الخناس

وانطلق يعدد ما ميزه الله به فوق الأجناس

ومضى يستعرض قوته ويحذر من فتن الانجاس

وكيد الطامع والدساس

وبين أن شطارته تزري بشطارة كل الناس

وبعد أن انطلق الشاطر يعدد ما ميزه الله عن غيره يقول:

برزت من بين جموع الناس عجوز

قـــــــــد أحنـــــــــت قامتهـــــــــا الأيـــــــــام

قالـــت يـــا ولـــدي يـــا شـــاطر يـــا ابـــن الشـــاطر

النـــــــاس جميعـــــــا تـــــــؤمن أنـــــــك شـــــــاطر

وبانـــــــــك مـــــــــن قـــــــــوم شـــــــــطار

فـــــــــالعرق كمـــــــــا قـــــــــالوا دســـــــــاس

وهكذا حتى جاء إلى نهاية القصيدة بعد أن غضب الشاطر من حديث العجوز:

غضـــــــب الشـــــــاطر وانتفخـــــــت منـــــــه الأوداج

وانهـــــــال علـــــــى تلـــــــك الختيـــــــارة بالكربـــــــاج

فتفـــرق مـــن فـــي الســـاحة مـــن قطعـــان المســـتمعين

والشـــرطة تجلـــد أظهـــرهم بســـياط كلســـان التنـــين

الفصل الثالث

بين الشاعر والشعراء

قصيدة قصة عجيبة:

في قصيدة عنوانها (قصة عجيبة) يهنئ الشاعر السوري "عالي الحمراء دُمَّر"[1] في قصيدته هذه صديقه الشاعر رجا سمرين والتي ألقاها في حفل عقد قران الأخير الذي أقيم بتاريخ ١٩٥٤/١١/١١ في ضاحية الزيتون، إحدى الضواحي الشمالية لمدينة القاهرة:

يـــا أيهـــا المحتفـــون شـــكرا تحيتـــــي حلـــــوة رطيبـــــة

أقـــدم الشـــكر عـــن "رجـــاء" "عريســـنا" شـــاعر العروبـــة

والقصة العجيبة صاغها علي دمر في قالب شعري يعتبر من أرقى أنواع الشعر الغنائي ولا يحسنه إلا عدد قليل من الشعراء.. فشاعرنا عالي الحمراء يجعل من عزوبة صديقه "قصة عجيبة" بل وغريبة بما فيها من وحدة وكآبة ويأس انعكست على عمله الذي لم يعد يهتم به.. يدور من مقهى إلى آخر دون تفكير وسط فراغين: فراغ العمل، وفراغ الجيب.. أبوه يتحسر على هكذا ابن معتبراً إياه "مصيبة ابتلي بها، لا يرتجى أخوه منه حتى زبيبة!

كـــان أخونـــا العـــريس يومـــاً يســـير فـــي قفـــرة العزوبـــة

يلـــوح فـــي منظـــر كئيـــب ونفســـه دائمـــاً كئيبـــة

---

(١) شاعر سوري حموي ١٩٢٥-١٩٨٥ ، حاصل على الشهادة العالية من قسم اللغة العربية، كلية اللغة العربية- جامعة الأزهر.. له عدة دواوين شعرية منها: رعشات، عواصف على هضاب فلسطين، حنين الليالي، المجهولة، غيبوبة الحب، إشراق الغروب، رسائل محرجة إلى نزار قباني، شعب الله المختار، ديوان علي دمر..

ويقول:

وكـــان فـــي الشـــغل "بلطجيـــاً" وكـــان فـــي وحـــدة مريبـــة

يحـــوم مـــن قهـــوة لأخـــرى فراغـــه مشـــبه جيوبـــه...

... كـــان أبـــوه يقـــول ويلـــي مـــن ولـــد "صـــائع" مصـــيبه!

وكـــان فـــي "غالـــب" عـــزاه لا يرتجـــي مـــن رجـــا زبيبـــه

وبينما هو في هذه الحالة أتته فرصة لدراسة منتظمة عالية الشأن والرتبة تغير حياته كلها... ولكن ذلك لم يكف شاعرنا .. فأخذ يتمثل نفسه طرباً وجلاوة وفكراً في ممشاه.. وبينما هو كذلك إذ بفتاة شقراء الشعر في طول وحسن وخجل تسير بمحاذاته ترميه بنظراتها الحلوة.. فغدا محباً.. وظل يسعى لكي يلاقيها.. فعرف أنها جارة لها فخطبها واليوم يتزوجها...

وفجـــأة فجـــأة أتتـــه دراســـة فخمـــة رتيبـــة...

... لكـــن هـــذا مـــا كـــان يكفـــي لكـــي يـــداوي رجـــا ندوبـــه....

...كـــان أخونـــا يســـير يومـــا فـــي مشـــية حلـــوة طروبـــة

وبينمـــا كـــان فـــي خطـــاه يســـبح فـــي فكـــر رحيبـــة

إذا بشـــقراء ذات حســـن ترميـــه بـــالنظرة المذيبـــة

كأنـــه الـــورد فـــي نـــداه خجولـــة حلـــوة أديبـــة....

...كـــان أخونـــا يـــرى دروبـــه فلـــم يعـــد مبصـــراً دروبـــه...

وظـــل يســـعى لكـــي يلاقـــي تلـــك التـــي أشـــعلت لهيبـــه

حتـــى درى أنهـــا فتـــاة مـــن بيتـــه جـــارة قريبـــة

ثـــم تـــولى إلـــى أبيهـــا وبعـــدها تمـــت الخطوبـــة

واليـــوم أمســـت لـــه عروســـاً ولـــم تعـــد عنـــده خطيبـــة

وفي قصيدة أخرى لنفس الشاعر بعنوان (الضائعون) وهي مهداة لصديقه رجا سمرين تحية لديوانه الأول (الضائعون)... وفيها يصف صديقه الشاعر رجا بالرقة واللطف ويصف شعره برقة الحواشي؛ شعر كالسيف مخرج الحدين قاطع مانع .. يقول في مطلعها:

زأر الشـــــاعرُ الرهيـــــفُ كفـــــاكُمُ لـــيس شـــعبي بيـــائس أو ضـــعيفِ

قصيدة حلم يتحقق:

الشاعرة "مريم الصيفي"[1] صاحبة أشهر صالون أدبي في الأردن– بعد الكويت – تصف شعر الدكتور رجا سمرين في صورة أخاذة فهو عندها الفارس في ساحة الشعر والقوافي والألحان العطرة.. وفي قصيدتها المؤرخة عام ١٩٨٥ وعنوانها (حلم يتحقق) تقول:

وأبـــو نـــزار فـــارس فـــي ســـاحة للشـــــعر قـــــد مشـــــق وابتـــــدر

كـــي نرتـــوي مـــن سلســـبيل قصـــيدة ونمتـــــع الأرواح بـــــاللحن العطـــــر

قصيدة رفيق الدرب:

وهنا شعر جليل ولقب أجلّ تهديه الشاعرة مريم الصيفي في قصيدتها (رفيق الدرب) مهداة إلى شاعرنا بمناسبة تقاعده عن العمل عام ١٩٨٩ ومغادرته لأرض الكويت تقول فيها:

نجلـــــك يـــــا معلمنـــــا جميعـــــا فأنـــت الرمـــز فـــي حجـــم العطـــاء

تعلمنـــــا دروســـــاً منـــــك تجلـــــو بـــــدرب النـــــور معنـــــى الكبريـــــاء

إلى أن تقول في إشارة جليلة إلى والد الشاعر المجاهد، وإلى الشهيد ابن الشاعر:

ســـموت مهابـــة وشـــرفت أصـــلا فـــأينع فيـــك مـــوروث الفـــداء

---

(١) ولدت الشاعرة مريم الصيفي في قرية الولجة قضاء القدس عام ١٩٤٥- حاصلة على ليسانس آداب/الجامعة الأردنية ١٩٦٨، وهي صاحبة صالون أدبي معروف على المستويين المحلي والقومي... لها عدة دواوين منها: انتظار، عناقيد في سلال الضوء، صلاة السنابل.

وتصف قصائده أخيرا فتقول في مقطع جديد:

نَحِـــنُّ إليـــك يؤنســـنا قصـــيد بـــديع اللفـــظ أخـــاذ المعـــاني

قصيدة أخي في المنفى:

وفي قصيدة (أخي في المنفى) للشاعر "هلال الفارع"[1] يستنجد بالشاعر ويطلب المعونة من قصائد شعره فيقول:

أخـي فـي المنفـى هـات الشـعر هـات فبـي ظمـأ إلـى شـعر الشـتات

وَجُـدُ –مـا شـفّكم وَجـدٌ- فـإني ضـرعت إلـى شـياطيني العصـاة

ومـا أفلحـت عنـدكم بـنظم أيفلـح عنـدكم نظـم الهـواة؟!

ومـا إلاك إن نبـت القـوافي فهـات الشـعر... هـات السـيف هـات

إلى أن يقول:

أخـي جـرد حروفـك إن فيهـا لغرقانـا تباشـير النجـاة

أذاك تـرى قصـيد أم سـيوف تقفيهـا بأعنـاق الـولاة؟

أم افتـرت حروفـك عـن ورود مفتتـة بوجنـات الحيـاة؟

أخـي فـي الـروح هـات الشـعر هـات فشـهد الـروح مـن نحـل الـدواة

---

(١) الشاعر هلال الفارغ من قصرة إحدى جدائل نابلس، عمل مدرسا للغة العربية ومحررا ثقافيا في جريدة القبس اليومية الكويتية. ويعمل الآن خبيرا تربويا ومديرا للتحرير في إحدى المؤسسات الفكرية في المملكة العربية السعودية. له عدة مؤلفات ودواوين شعرية، وترجمت قصائده إلى عدة لغات وتناولت أشعاره عدة دراسات، وحملت كتب وأطروحات ماجستير نصوصه وقصائده.

قصيدة مبايعة:

وفي نفس عام إحالة شاعرنا الدكتور رجا إلى التقاعد يبايع الشاعر الفارع زميله الدكتور رجا "بدراً على دروب القوافي مرشدا" :

جـــاءت إليـــك فـــلا تـــرد الموعـــدا إن الحـــروف تـــراك فينـــا الأوحـــدا

عـزت علـى الشـعراء فـاحترقوا بهـا فأشـــر إليهـــا بالبنـــان لتوجـــدا

وانظـــم تفاعيـــل القصـــيد كأنهـــا درر تقلـــدت القصـــيد الأجيـــدا

يـــا أيهـــا الرجـــل الـــذي بايعتـــه بـــدرا علـــى درب القـــوافي مرشـــدا

تســـتأنس الخطـــوات عنـــد تمامـــه فتضـــيء مـــن ســـهل لتشـــفي أنجـــدا

صـــب القـــوافي فـــي مراجلنـــا فقـــد تحيـــي الحـــروف علـــى يـــديك الموقـــدا

فلأنـــــت فينـــــا قائـــــد ومعلـــــم ولأنـــــت فينـــــا لا تـــــزال الأصـــــيدا

قصيدة أخا الأحرار:

وتتساءل الشاعرة "جوهرة سفاريني"[1] عن مصير الأمسيات واللقاءات والندوات الشعرية بعد غياب نجمها.. فتقول في قصيدتها (أخا الأحرار):

تســـائلني الجـــوارح مـــن سيشـــدو بســـــــهرتنا إذا انعقـــــد اللقـــــاء

وكنـــا صـــحبة فيهـــا "رجـــاء" بـــأن يشـــدوا بجلســـتنا رجـــاء

---

(١) جوهرة سفاريني شاعرة فلسطينية من سفارين/أعمال طولكرم، ولدت في ظلال النكبة عام ١٩٤٧، عملت أستاذة في مدارس التربية والتعليم في الكويت والأردن، أصدرت عدة دواوين شعرية منها: نداء الأرض وحجارة الأعماق وقدم هذا الديوان الدكتور رجا سمرين، خيول لا تنام، ولينتفض الضوء.. شدت الرحال مع زوجها إلى أمريكا وأعادها الحنين إلى الأردن لتستقر فيه.

إلى أن تقول الشاعرة جوهرة سفاريني:

ونجـــم الحفـــل يتحفنـــا بفـــن فتبهجنـــا الفكاهـــة والإخـــاء

وتستطرد متسائلة:

وهـــل تحلـــو مســـامرة الســـهارى وقـــد غادرتنـــا وبـــك الضـــياء

مكانك يا أخي:

وفي قصيدته (مكانك يا أخي) للشاعر "ربحي محمود"[1] قال عن شعر رجا وقوافيه:

أضـــأت لقاءنـــا وشـــدوت فيـــه وأشـــجيت الأحبـــة والصـــحابا

نثـرت الشـعر فـي أرجـاء روحـي نقيـــا صـــافيا فحـــلا وطابـــا

قوافيـــك العـــذاب لهـــا اصـــطحاب وبحـــرك زاخـــر يـــروي الشـــبابا

تعـــاتبني القـــوافي فـــي رحيـــل فبعـــدك شـــعرنا بـــات انتحابـــا

---

(١) ولد الشاعر الفلسطيني ربحي محمود عام ١٩٤٥، حاصل على ليسانس آداب، عمل مديرا لتحرير مجلة (مرآة الأمة) الأسبوعية الكويتية، ثم رئيساً لمجلة التوجيه الوطني والمعنوي في رام الله/فلسطين، وله عدة دواوين شعرية.

وللشاعر "خالد فوزي"[١] أبيات رائعة يشكر فيها الشاعر الدكتور رجا سمرين على تقديم ديوانه الجديد (**نفحات أردنية**) الصادر عام ٢٠٠٢م،

تقـــــديمك الفـــــذ عـــــرش عليـــــه شـــــعري تربـــــع

مـــــا كـــــان أحـــــلاه نقـــــدا روى خيـــــالي وأشـــــبع

تابعتـــــــــه بافتتـــــــــان فـــــالأرض للشـــــمس تتبـــــع

ســـــموت قـــــدراً وحاشـــــا تعلـــــو علـــــى الكـــــف الإصـــــبع

إن كـــــان شـــــعري نهـــــراً فأنـــــت للنهـــــر منبـــــع

الذوق والحجا:

وللشاعر الدكتور "صلاح عيد"[٢] قصيدة بعنوان: (الذوق والحجا) اخترت منها أبياتاً تصف بها الشعر والشاعر:

الـــــــــذوق والحجـــــــــا همـــــــا همـــــــا رجـــــــا

يشـــــــــع جـــــــــودا أو شـــــــــعرا مـــــــــدبجا

امتـــــــاز فـــــــي كـــــــلا الأمـــــــرين منهجـــــــا

إلى أن يقول:

تـــــــــرى قصـــــــــيده ذاك المـــــــــــــــــــــــدججا

معنـــــــــاه فـــــــــارس للفـــــــــظ أســـــــــرجا

قـــــــد رق مـــــــدخلا وراق مخرجـــــــــــــــــا

(١) الشاعر خالد فوزي عبده ولد في نابلس عام ١٩٢٧ – محاسب وحاصل على ليسانس في الآداب، له عدة دواوين شعرية منها: عندما تغني الجراح، شموع لا تنطفىء، زهور لا تذبل، ونفحات أردنية.

(٢) الشاعر الدكتور صلاح عيد ولد في دمياط/جمهورية مصر العربية عام ١٩٣٩، آداب جامعة القاهرة هام ١٩٦١، دكتوراه في الأدب العربي عام ١٩٧٠، استاذ في جامعة قناة السويس. له عدة دواوين ومؤلفات.

وفيها يصف الشاعر صلاح عيد صديقه الدكتور رجا بصفات لها معانٍ مجازية، مذاقه الطيب.. ولا يغيب عن القارئ الهمام أن الذوق يكون بالفم وبغير الفم. ورجا هو الحجا.. العقل والفطنة وملجأ أهل الفطن يولعون به ويلازمونه. وهو شاعر مجواد يغلب الناس ويعلوهم بالجود. ويقول الشاعر منظما بأنه تفوح منه ريح طيبة ساعات وأوقات تحس بها وكأنك في بستان وروضة غناء. وهو في كل ذلك صاحب منهج فعّال لا يشتكي التعب والفتور. وقد سرجه الله فقهه وزينه خلقاً وطبيعة وشعراً يمشي في دجة الليل رويدا رويدا.. وكأنه قد غطته ولبسته جبة وسلاح.. فارس النظم والشعر في الولوج في شدة الظلمة مثل الشمس في الظهور والنور.

وبمناسبة صدور أحد دواوين الشاعر الدكتور رجا سمرين عام ١٩٨٥ بعنوان **(وتبقى الفوارس قرب الجياد)** يقول الدكتور صلاح عيد:

ورجـا بـن سـمرين الـذي ديوانـه فيـه عذوبـة رقـة ولهيـب

اليـوم قدمـه إلـى قرائـه وغـداً علينـا النقـد والتعقيـب

وفي قصيدة الدكتور صلاح عيد **(اليوم أسعدنا رجا)** التي ألقاها بمناسبة الحفل الذي أقامه الدكتور رجا لزملائه في قسم اللغة العربية بمعهد التربية للمعلمين بمناسبة زواج ابنه البكر "نزار"؛ افتتح المهنئ القصيدة بتورية جميلة في كلمة (رجا) ووصفه بالوفي وفاء الأقحوان – إذا وعد أوفى ونفذ كرجل:

اليـوم أسـعدنا بدعوتـه رجـا

لا خيّـب الـرحمن فيـه لنـا رجـا

وعـد الرجـال وفـي بـه ووفـاؤه

كـالأقحوان إذا شـذاه تأرجـا

ويبرر صلاح تأخر رجا في الوليمة فيقول: تأخره ليس تملصاً بل كاف بسبب أن الحالة المادية لم تكن ميسرة.. ولما أفرجها الله ظهر كرم الدكتور رجا كنهر جارف.. فأولم بخروف محاط بتوابله وسلطاته مما لذ وطاب عند أهل الذوق والعقل :

قـالوا تـأخر للـتملص قلـت لا بـل كـان منتظـر لهـا أن تفرجـا

حتـى إذا فرجـت تفجـر جـوده كـالنهر أغـرق شـكهم أو أحرجـا

هــو الــذي جلــب الخــروف بنفســه وأتــي بمــا حــاط الخــروف محوجــا

وختم الدكتور صلاح عيد القصيدة بالدعاء بأن يظل كرم أبو نزار منتشراً ومعروفاً في الآفاق..

فليبـــق رب لـــه نـــزار موفقـــا أيامـــه ملئـــت بمـــا قـــد أبهجـــا

فهــو الــذي اختــار الــزواج لنفســه وعلــى أتــم الــوعي حــين تزوجــا

وليبـــق جـــود أبيـــه مثـــل قصـــيدة كالصـــبح فـــي الأفـــق الســـني تبلجـــا

قصيدة الحق والصداقة:

قصيدة (الحق والصداقة) من شعر التفعيلة، البحر الكامل وهي قصيدة مهداة من الدكتور رجا إلى صديقه الشاعر الدكتور صلاح عيد.

أنـــا لا أطيـــق بـــأن تـــرى متهجمـــاً فـــاملأ محيـــاك الصـــبوح تبســـما

إن اخــتلاف الــرأي لا يمحــو الصــفا مــن نفــس قــد كــان حقــا مســلما

إنـــي عهـــدتك يـــا صـــلاح مؤيـــدا للحـــق تحميـــه بمالـــك والـــدما

إلى أن يقول:

إنــي اجتهــدت فــإن أصــبت فــإن لــي أجــر المصــيب للحقيقــة مكرمــا...

... هبني غلطت... أليس لي من حظوة ترجـــى لـــديك فتصـــفحن وترحمـــا

فلربمـــا غلـــط اللبيـــب وجانـــب الـــ حـــق الصـــراح حكـــيم قـــوم عظمـــا

أنا لا أتحمل أن تبدو عابساً يا صلاح! هاجم محياك.. فإن اختلافنا في الرأي لا يعكر صداقتنا ولا يشتت الحق الذي أعرفك تحميه بمالك ودمك.. الحق ... الصواب.. فحكيم القوم.. معلم القوم .. لبيبهم وعظيمهم قد يجتهد فيصيبون أو يغلط ويجانبون الحق الذي قد يصيبه جاهل ليس من علمائه.. داوم معي على متانة حبل ودنا نعظمه ونحميه ...

قصيدة البلبل الصداح:

قصيدة مهداة من الدكتور رجا إلى صديقه الدكتور صلاح عيد. وهي قصيدة من شعر التفعيلة (مجزوء الرجز).

شاعرنا صلاح.. البلبل الصداح... رفقته وصحبته أرباح وهناء ... لكنه سهل الوقوع أسيراً للغرام وحب المليحات والعيون الساحرة وضفائر الشعر ووشاحها... فكثيراً ما وقع أسير الهوى فأغرق همومه في أقداح الدن مخالفاً أساه في رحيل لا يتوقف.. يبحث عن مدينة فاضلة ليس بها ظالم.. سيدها الصلاح والحب المباح للجميع... الحب فيها سيد... لأهلها مباح.

من أبياتها:

شـــــــاعرنا صـــــــلاح البلبـــــــل الصـــــــداح

أشـــــــعاره ورود أريجهـــــــا فـــــــواح

مهـــــــذب أصـــــــيل نابغـــــــة لمـــــــاح

لســـــــانه عفيـــــــف مـــــــن طبعـــــــه الســـــــماح

رفقتـــــــه هنـــــــاء صـــــــحبته ربـــــــاح

عبدالرشيد بن سالم:

وهي قصيدة من شعر التفعيلة (بحر المجتث) ، من شعر الدكتور رجا إلى عبد الرشيد بن سالم بمناسبة صدور كتابه (التراجم وفنونها)... فيها يبدي إعجابه بصاحب (التراجم وفنونها)، وصفه بصفات هي العذوبة والرقة والنعومة وصدق العزيمة.. وهو شيخ في الأدب ، وعالم في النثر.

عبـــد الرشـــيد بـــن ســـالم عـــذب رقيـــق ونـــاعم

عذوبـــة النيـــل يســـقي أهـــل القـــرى والعواصـــم

ورقـــة لـــيس فيهـــا ضـــعف يشـــين المعـــالم

نعومـــة أشـــبهتها نعومـــة الســـيف قـــائم

شـــهم كـــريم أبـــي وضـــيغم مـــن ضـــياغم

شفتشيات استفتاح:

وفي قصيدة الشاعر محمد يوسف[1] (شفتشيات - استفتاح)، مهداة إلى صديقه الدكتور رجا سمرين.

الأستاذ محمد يوسف رجل به خجلة.. به حياء.. وبه مرح رحمه الله.

والقصيدة حوار بين الشاعر محمد يوسف، وبين عرب الأنظمة الذين طالبوا بالاحتفال بوحدة البلاد العربية! فصرخ محمد يوسف بهم طالباً أن يسترخوا من الحياء لما فيه من الذب والهوان...

فالأنظمة لا تحتفل إلا بجنرال غراب البين والتشتت والفراق. فأنا في عشقي وفي أخذي للأمور متطرف حتى الجنون.. شأني في أخذي للأمور شأن قيس وتطرفه المنتهي بالجنون.. أصرخ بذل وهوان قيس في عشقه! رجال الأنظمة تقود الأمة إلى المصير المجهول.. إلى مصير أصم تاركاً القضية الفلسطينية في وأدها.. لا طماً وجهه... فرجل الأنظمة يظهر في الحروب كامرأة لعوب.. ويتمنى محمد يوسف أن يأتي زمان ينتصر به عشاق القضية ومن يفدي فلسطين التي صبرت وناضلت وانتفضت.. وزينت نفسها بحجارة من أعلى أعالي قمم جبال فلسطين.. حجارة صدوق تزينها الشمس بأنوارها.. ويتساءل: كيف يكون الطريق إلى خيار البندقية؟! مع إيماننا بحجارة وعدت وصدقت بأن الأيام القادمة تشق وتفلق وتشج رؤوس الذئاب والخراتيت وتيوس الأمة.

وهنا نذكر أبياتاً من قصيدته:

قـــــالوا ندشـــــن وحـــــدة فـــــي المشـــــمش

قلـــــــــــــــــــت "اختشـــــــــــــــــــوا"

قـــــــــــــــــالوا: "اختشـــــــــــــــــي"

الأديب الشاعر والصحفي المصري محمد يوسف -رحمه الله- حاصل على بكالوريوس من قسم اللغة الانجليزية من جامعة عين شمس ١٩٦٤، عمل في دولة الكويت أستاذا للغة الانجليزية، وفي مجلة مرآة الأمة، وفي مؤسسة الكويت للتقدم العلمي وعمل مدير تحرير لمجلتها. له إحدى عشرة مجموعة شعرية وخمسة مؤلفات نثرية، وأنتج مسرحيتين، ومجموعات شعرية أخرى تنتظر النشر. ترجمت بعض من أشعاره إلى اللغتين الانجليزية والفرنسية والإسبانية. وشارك في العديد من المؤتمرات والأمسيات الشعرية والأدبية والثقافية والعلمية.

وأدرت ظهـــري

والطريـــــــــــــــــــــــــــق ملغـــــــــــــــــــــــــم:

ذئـــــــــــــــــب وخرتيـــــــــــــــــت وتـــــــــــــــيس

وأنـــــــــــــــا أذوب بنـــــــــــــــار عشـــــــــــــــقي

رائـــــــــــــدي فـــــــــــي العشـــــــــــق "قـــــــــيس"

وصـــــــــــــرخت يـــــــــا علـــــــــم العروبـــــــــــة

كـــــــــــــــل ذئـــــــــــــــــب ينتشـــــــــــــــــي

بـــــــدم العروبـــــــــة/ كـــــــل خرتيـــــــت يســـــــير

إلـــــــــــــى المصـــــــــــــير "الأطـــــــــــــرش"

والتـــــــيس فـــــــي ســـــــوق السياســـــــة يرتشـــــــي

أأذيـــــــع ســـــــراً يـــــــا "رجـــــــا ســـــــمرين"

يـــــا صـــــوتي المشـــــاكس فـــــي المنـــــافي المعتمـــــة

وأقـــــــــــــــــــــــــــزل إن الأنظمـــــــــــــــــــــــــــة

لا تحتفـــــــــــــــي إلا بجنـــــــــــــــرال غـــــــــــــــراب...

الفصل الرابع

طوائف من آثاره الشعرية

من الآثار الشعرية الخالدة للشاعر الدكتور رجا سمرين- عدا عن أبحاثه ومقالاته ومؤلفاته الأدبية والنقدية-، تجمع لدي مسرحة شعرية واحدة، شذرات، ورباعيات، وستة دواوين شعرية تحتوي على مائتين وخمس وخمسين قصيدة، كلها وزعت في الدواوين على النحو التالي:

- الضائعون ديوان يشتمل على ٣٢ قصيدة.
- وتبقى الفوارس قرب الجياد ديوان يشتمل على ٤٨ قصيدة.
- الطريق إلى أرض ليلى ديوان يشتمل على ٣٢ قصيدة.
- خميلة الروح ديوان يشتمل على ٥٥ قصيدة.
- بيني وبين الشعراء ديوان يشتمل على ٢٦ قصيدة.
- عواصف الخريف ديوان يشتمل على ٦٢ قصيدة.
- المسرحية الشعرية الجنة الضائعة، تتألف من أربعة فصول.
- شذرات: ٣٩ شذرة، وهي مقاطع شعرية صغيرة غير مؤرخة.
- رباعيات: ١١٧ رباعية.

وباستثناء ديوان عواصف الخريف– الذي صدرت منه طبعة أولى سنة ٢٠٠٩، وطبعة ثانية مزيدة سنة ٢٠١٩- ، فقد جمع الشاعر دواوينه الشعرية في مؤلف بعنوان (الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر الدكتور رجا سمرين) صدر عام ٢٠٠٢. وإلى جانب هذه الدواوين الشعرية ديوان أسماه شاعرنا الدكتور رجا سمرين (قصائد رهن الاعتقال).. أغلبها شعر في الهجاء.. هجاء دون حياء، هجاء خارج عن الذوق والأدب.. هجاء مستهجن جداً..وتشطيرات قالها في زملائه.

ومثل غيره من الشعراء التقليديين، لا يعترف شاعرنا بالقصيدة النثرية، ويرى أنها ما تزال نصاً يحتاج إلى هوية. وشاعر مثل "شربل داغر" لا يجد حرجاً من وجود علاقة بين قصيدة النثر والقصيدة المترجمة، والأمثلة على ذلك:

١) لم يتحرج (سليمان البستاني) من أن تكون ترجمته (للإلياذة) منظومة. ولا (نقولا فياض) أو غيرهما من شعراء التجديد الأوائل الذين أوجدوا صلات لازمة وحيوية بين شعرهم والشعر الأجنبي.
٢) علينا أن ننظر إلى القصيدة النثرية بعين الوافد الغريب. إن أي نظرة تاريخية للشعر العربي الحديث بعهوده المختلفة تظهر بأنه تجدد بفعل عوامل التغرّب، وأن الشعر تفاعل مع نماذج شعرية عديدة، وهو ما يصح في قصيدة النثر.
٣) قصيدة النثر ليست القصيدة الركيكة من جهة، والقصيدة المترجمة ليست الركيكة من جهة ثانية، فهناك من النماذج في الحالتين ما تسقط هذا التعميم: "أدونيس" في ترجمته لقصيدة "سان جورج بيرس" بعنوان (ضيقة هي المراكب) كان أن أنتج ترجمة هي أجمل من شعره.. إلى ذلك هناك من الشعر العمودي وغيره ما تندرج حكماً في ركاكة اللغة من مثل الكثير من الشعر الوطني والقومي وغيره..

في قصيدة عنوانها (خميلة الروح) يفتح الدكتور رجا سمرين لمجموعته الشعرية (الأعمال الكاملة) بوابة دلالية أمامنا تفضي إلى عناوين قصائد لا تبشر بالفرح بل توحي بالحزن والانكسارات والهزائم والضياع.. وفيه مجموعة شعرية تنضح بالوجدان الذاتي، وجاءت بعض القصائد محملة بنسائم الحب من مثل قصيدة (يا ليالي الحب) وإن كانت مضمخة برطوبة الحزن ولوعة الغربة.

تأخذ الغربة في قصائد ديوان (خميلة الروح) حيزاً غير قليل في العديد منها: غربة الأشياء عن ذاتها، وغربة الوطن، والغربة التي تنهش بأسنانها وقواضمها قلب عاشق محب أو قلب أم طيبة، وقلب شعب بأكمله، ونتذكر هنا قول الشاعر أمل دنقل..

لا تعـــذلوا الشـــعب إن حلـــت بـــه الأتـــراح
حياتـــــه رحيـــــل لـــــيس لـــــه مـــــراح
تقـــذف بـــه بحـــار تلـــوى بـــه بطـــاح

ويحث شاعرنا رجا الشعب على تغيير الحال بالتضحيات فيقول مخاطباً شعبه في قصيدته (يا شعب) وهي قصيدة قومة من مجزوء الرجز نظمها عام ١٩٥٦:

يـا شـعب قـد نـادى المنـادي اليـوم حـي علـى الفداء
فأجـب نـداء صـريخك الملهـوف يـا رمـز العطـاء
بـــالأمس قـــد شـــهدت لـــك الـــدنيا بأنـــك ذو إبـــاء

فــدع الأنــام يقــر أنــك حــين تســأل ذو ســخاء

وفي جهة ثانية، يعود الشاعر إلى التاريخ ليثبت من جديد صدى الأصوات من الشخصيات الأدبية والدينية الذين قادتهم أفكارهم وآدابهم إلى الهلاك في لعبة فنية فريدة، يعكس الشاعر من خلالها واقعاً من الهموم والمعاناة كما هو الحال في قصائد "سديف بن ميمون" وهو شاعر عباسي دفنه عامل المنصور في مكة حيًّا لإقحام نفسه وشعره في شئون الدولة والخلافة...

كما ويشتمل ديوان (خميلة الروح) على مجموعة شعرية مبنية على نظام التفعيلة، ويطرح من خلالها مجموعة من التساؤلات بلغة فنية عالية أتت امتداداً لسابقاتها ولاحقاتها من أعمال الشاعر في صفاء الصوت وسلاسة اللغة وتدفقها، محاولاً في هذا العمل الابتعاد عن الرومانسية لخوض تفاصيل الأشياء ورصد هموم ومشكلات الحياة اليومية عبر رؤية فنية وحياتية عالية تكشف فيها القصائد بوضوح عن ما يمكن تسميته (بالموضوع الأيديولوجي) وما فيه من رؤيا حاسمة للعالم، كل هذا في نظم يميل إلى لغة النجوى والذاتية، لغة يزداد فيها ضمير المتكلم عن ضمير الغائب أو ضمير المخاطب.

والشاعر في نشاطه غير المحدود- وخاصة وهو في معجمة شبابه وغلوته وعنفوانه– غير عابىء بعقابيل تعترض مسيرته لشرح الفكرولوجيا عنده من قومية ووطنية وما فيهما من الفاعلية والمفعولية.. أي خلقه لنمط معين من الوجود في الترابط، فيميز الأصيل (Original) والأصلي (Authentic) والأصلاني (The pre-native of a country) في مضامين الأصلانية (nativism).

قصيدة حمامة الدوح :

ومن القصائد التي يطالعنا به هذا الديوان وهي قصيدة وجدانية بعنوان (حمامة الدوح) تكشف عن رموز دلالية تشير إلى "المدينة الفاضلة"، والصفات التي يعيش فيها الإنسان في عالم من البشارات.. بشارات الحب والأحلام تشع فيها شموس جذلى مياسة باسمة لا يعكر النفس فيها ماكر خبيث ولا غادر متحايل.. مدينة خالية من كل دعي ومن كل ظالم. فالشاعر يفضي همه للحمامة ويتكلم بلسان شعبه، وهي قصيدة من (البحر البسيط).. يقول فيها:

حمامــةَ الــدوح لــو تــدرينَ مــا صــنعتْ بـــي الليـــالي مُـــذْ أنْ جئـــتُ للنـــورِ

فقـــدتُ أرضـــي وأحلامـــي وقافلـــةً مـــن الأحبـــاءِ فـــي بيـــداءِ تهجيـــري

وهذا يذكرنا بقصيدة أبي فراس الحمداني

أقــول وقــد ناحــت بقربــي حمامــة أيــا جارتــا هــل تشــعرين بحــالي

وهي قصيدة من البحر الطويل... وفي موضوع القصيدتين التقارب والتماثل.

إن في قصيدة حمامة الدوح مختصر لقضية الوجود وعبثية الزمان والمكان..

قصيدة لأنني:

وهي قصيدة من شعر التفعيلة، تعتمد على تفعيلة (بحر الرجز)، مهداة إلى الراحل "ناجي العلي".. ناجي الاجتماعي المنتج المشارك والناقد اللاذع.. وإذا كان البعض يعتقد أن ناجي كان انعزاليا فهو مخطئ لأنه يخلط في حكمه هذا بين الانتقائية والانعزالية. فقد كان ناجي انتقائيا ولم يكن انعزاليا..

لأننـــــي أتقنـــــت لعبـــــة النـــــزال والقتـــــال

لأننـــــي أورثـــــت عســـــعس الخليفـــــة الخبـــــال

والغـــــــــــــــــيظ والكـــــــــــــــــــلال

والعجـــــز عـــــن معرفـــــة الواقـــــع والخيـــــال

طبعت شخصية ناجي بأخلاقيات جعلته باستمرار مع الفقراء.. وتعفف عن المال.. وقد انعكس هذا على رسمه الكاريكاتيري، كذلك فإن مشاعره الوطنية التي شحذها ونماها بانتمائه إلى حركة القوميين العرب قد انعكست على تلك الرسومات في مواقف غلب عليها موضوع قضية فلسطين:

أننـــــي أبيـــــت أن أكـــــون مثـــــل أغلـــــب الرجـــــال

مـــــــــدجنا كقطـــــــــة نـــــــــادرة المثـــــــــال

لأننـــــي لـــــم أرتكـــــس فـــــي حمـــــأة الضـــــلال

ولـــــم أبـــــدل مبـــــدئي كمـــــا تبـــــدل النعـــــال

إن لكل دولة جريدتها الرسمية التي تعلن فيها قوانينها وأحكامها.. أما كاريكاتيرات ناجي العلي فقد كانت الجريدة الفلسطينية الرسمية.. تقرأ فيها حرب ناجي العلي ونعرف منها متى.. وكيف.. وعلى من ستكون حربه القادمة؟!

ولـــــم أهلـــــل معجبـــــاً بـــــالأعور الـــــدجال

ولا بمـــــا ردده مـــــن خطـــــب طـــــوال...

...لأننـــــي لـــــم أســـــتطع فهـــــم مـــــا يقـــــال

عـــــن حكـــــم الخليفـــــة الغـــــوال

محمود درويش استشاط غضباً عندما شاهد أحد كاريكاتيرات ناجي العلي التي يحكي فيها عن دعوة محمود درويش إلى لقاء مع الشعراء والأدباء الإسرائيليين والفلسطينيين.. فأجرى مكالمة هاتفية مع "ناجي" لم تخل من التهديد ومنه قوله فيها: "يا ناجي! انت مش قدي!" وازداد غضب درويش على ناجي بعد رسمٍ للأخير قال فيها: (محمود درويش.. خيبتنا الأخيرة بعد ما صار عضو لجنة تنفيسية).

إن خط التسوية في منظمة التحرير الفلسطينية كان لا يريد صوتاً معارضاً قوياً.. فكيف ستصل خطة تسويته ببقاء "حنظلة"؟! اتصل "صلاح خلف–أبو إياد" بناجي وأخبره أن قراراً قد اتخذ بتصفيته! فقرار التصفية إذن هو قرار فلسطيني.. من لهذا الزمن الرديء غير ناجي و"حنظلة"؟!

لم يصرخ فينا في هذه الصباحات الأكثر قتامة مما مضى غير ناجي.. يقول الشاعر:

لأننـــــي رفضـــــت أن أكـــــون فـــــي الـــــبلاط

زيـــــر نســـــاء داعـــــراً يمـــــارس البغـــــاء واللـــــواط

ولا يحـــــــــس بلســـــــــعة الســـــــــياط...

... لأننـــــــــي فعلـــــــــت كـــــــــل هـــــــــذا

وكنـــت كلمـــا يـــأمرني أقـــول فـــي شـــجاعة: لمـــاذا؟!

أخرجنـــــــــي مـــــــــن قصـــــــــره

ولـــم يجـــدني صـــالحاً لأن أكـــون كاتمـــاً لســـره

وحارســـــــــا لعهـــــــــره وفجـــــــــره..

لم يكن ناجي يتقن سوى أن يكون صعلوكاً ولم يستطع أن يمضغ غير المرارة، ولم يحاول أن يمتهن سوى الحزن عتقه حتى فاض من بين يديه على أوراق... ثم فاض بشكله الآخر على أحد أرصفة مدينة لندن.. فقد توفى ناجي العلي اغتيالاً في التاسع والعشرين من آب عام ١٩٨٧م. قاتَلَ ناجي العلي بحنظلة.. ولأجله قُتل.. ولا زالت روحه خطوطاً قوية ترفرف فوق ثرى فلسطين..

ناجي العلي عالمياً:

١- اختارته صحيفة "اساهي" اليابانية كواحد من أشهر عشرة من رسامي الكاريكاتير في العالم.
٢- استخدم ناجي العلي رسوماته لمهاجمة الاستبداد اينما رآه في الشرق الأوسط.
٣- كان أول عربي يحصل على جائزة" القلم الذهبي الدولية" التي يمنحها الاتحاد الدولي لناشري الصحف سنويا.
٤- كان ناجي العلي أول فنان كاريكاتير سياسي يقتل لأنه عبر عن قضية ومأساة شعبه دون أن يخشى أحد.
٥- عمل في أكثر من خمس صحف ومجلات: مجلة الطليعة، جريدة السياسة الكويتية عام ١٩٦٨، جريدة السفير اللبنانية عام ١٩٧٥، جريدة الوطن الكويتية، جريدة القبس الكويتية... فكان صاحب أكثر من أربعين ألف لوحة كاركاتيرية منشورة، عدا المحظورة التي ما تزال حبيسة الأدراج.
٦- برحيله المؤلم جعل فن الكاريكاتير "بندقية" يرميها على العدو مرة، وعلى التخاذل العربي مرة أخرى..

قصيدة الحب العقيم:

قصيدة وجدانية من شعر التفعيلة البحر الطويل.

القصيدة تصوير لتجربة وجدانية فاشلة، تجربة حب عاشها الشاعر الدكتور رجا قبل أربعين عاما.. وكان أن عقل الألم لسانه عن وصف التجربة حينها.. ولم تنحل عقدة لسانه إلا في السابع من يوليو لعام ١٩٨٩ عندما مر صدفة أمام البيت الذي كانت تسكن فيه بطلة تلك التجربة المؤلمة..

...لقد كنت ترجو أن تحب فما الذي

وجدت؟ وقد أحببت من عنك تصدف...

غــرام ولا وصــل، وهجــر ولا لقــا

فللـــه يـــا قلبـــاه كـــم ذا تُكلـــفُ

أمُّ تلك الحبيبة الأم تركت والد البطلة وتزوجت من غيره..

ألــيس بمجنــون ابــن عــامر عبــرة

ومــا جــرّ مــن ويــل عليــه التطــرف

كفــى حزنــاً أن يعلــق القلــب غــادة

تصــعر خــداً عــن هواهــا وتعــزف

قصيدة يا ليالي الحب:

قصيدة وجدانية من شعر التفعيلة بحر مجزوء الرمل، نظمها الشاعر عام ١٩٨٧ ..

تضاءل وجود الشاعر بعد أن غابت حبيبته عنه. وحتى يثبت هذه الوجود ويثريه.. يستنجد بذكريات حبه وليالليها معطرة بابتسامات وولع الحبيب وخاصة أنه قد: "خاب في الأحباب ظنه، ولم يعد غير الشعر أكثر حنوًّا عليه".

يـــا ليـــالي الحـــب عـــودي ألهمـــي أوتـــار عـــودي

علهـــا تثـــري وجـــودي بعـــدما غـــاب حبيبـــي...

.... يـــا ليـــالي الحـــب إنـــي خـــاب فـــي الأحبـــاب ظنـــي

لـــم يعـــد لـــي غيـــر فنـــي فهـــو أحنـــى مـــن حبيبـــي

قصيدة أفول:

قصيدة وجدانية من شعر التفعيلة بحر مجزوء الرمل، نظمها الشاعر عام ١٩٥٠م.

القصيدة تبحر بنا إلى"غروب ما بعده شروق"... فالشاعر في خصام حاد مع حبيبته.. من خلالها ينادي حبيبته ويرجوها إنهاء هذه الخصومة التي تركته وحيداً، جريحاً فؤاده، باكياً، يتلوى لياليه ويناديها ويذكرها بما كان من عهود بينهما:

يـــا دنـــا أيـــن ليـــال منـــك قـــد كانـــت جميلـــة

أيـــن صـــفو لا أرى فـــي هـــذه الـــدنيا مثيلـــه....

...أيـــن أيـــام تقضـــت فـــي هنـــاء وســـلام...

لقد تبدل كل شيء: فلم يعد يرى صفوا، ولم يعد يطرب لغناء طير وهو يعلن أنوار الفجر.. ولم يعد يكحل عينيه برؤية الزهور وجداول المياه في خريرها بين الصخور.. ومد البحر للشاطئ وكأنه يهديه قبلات..

كـــل هـــذا يـــا حبيبـــي لـــم يعـــد فيـــه ســـرور

لا ولا يجلـــب للقلـــب هنـــاء أو حبـــور

إنـــه يبـــدوا لعينـــي صـــامتاً صـــمت القبـــور

معلنا في نهاية قصيدته أن شمس حياته قد أفلت وانطفأ نورها:

آذنـــت شـــمس حيـــاتي يـــا حبيبـــي بالمغيـــب

قصيدة انتقام:

قصيدة وجدانية من شعر التفعيلة ، بحر الرمل_ نظمها الشاعر عام ١٩٥٣م.

فـــي ظـــلام الليـــل والـــدنيا ســـكون وأنـــا وحـــدي علـــى وجهـــي أهـــيم

تائهـــاً حيـــران فـــي بحـــر الظنـــون غارقـــاً فـــي لجـــة الليـــل البهـــيم

كنت قد حصلت على شهادتي الثانوية في مصر عام ١٩٥٣، فعدت إلى فلسطين أحاول العمل لأعيل والديّ العجوزين تاركاً الفرصة لرجا يدبر أموره للدراسة في الأزهر.. فعاكسته أمور طمرته ببؤس ويأس قاتلين، ولم يكن له زافرة ولا أنصار ولا خاصة.

ووصل به الأمر أنه لولا نفثاته وزفراته في هذه القصيدة لخرج يسير في الشوارع والطرقات والحارات هائماً غارقاً في الظلام كخفاش يأبى النور ويرفضه، معلنا طلبه إلغاء وجوده ووجود الآخر معه.

يـــا طيـــور الـــنحس هيـــا رفرفـــي فـــوق هـــذا العـــالم الـــنحس النكـــد

يـــا ريـــاح الشـــؤم هبـــي واعصـــفي حطمـــــي الكـــــون ولا تبقـــــي أحـــــد

ووصلت سوداوية الشاعر إلى حد التخلي عن إنسانيته بقوله:

يـــا ســـيول المـــوت ثـــوري واجرفـــي كـــل مـــا تلقـــين فـــي هـــذا الوجـــود

واجعلـــــي الأم لهـــــول الموقـــــف تســـترد الثـــدي مـــن ثغـــر الوليـــد

قصيدة من أنت؟!:

وهي قصيدة اجتماعية حرة من شعر التفعيلة، البحر الكامل، نظمها الشاعر عام ١٩٥٦م. وهي قصيدة مستوحاة من قصيدة إيليا أبو ماضي (الطين) :

نســى الطــين ســاعة أنــه طــين حقيــر فصــال تيهــا وعربــد

وكســا الخــز جســمه فتبــاهى وحــوى المــال كيســه فتمــرد

وفي قصيدة الدكتور رجا يقول:

مـــــن أنـــــت يـــــا هـــــذا الـــــذي قـــــد صـــــد عنـــــي

أتظـــــن أنـــــي لســـــت منـــــك ولســـــت منـــــي

أتظـــــن أنـــــك قـــــد خلقـــــت مـــــن التـــــراب؟!

والشاعر يسأله مستنكرا اختياله من أنت يا هذا الذي صد عني؟!

لا تصـــــد فأنـــــت مثلـــــي مـــــن تـــــراب

وأبـــــــــــــوك مثـــــــــــــل أبـــــــــــــي

وأمـــــــــــــك مثـــــــــــــل أمـــــــــــــي

ولـــــــــدتك بـــــــــالآلام يـــــــــا ربِّ الســـــــــموخ

لا لا تصـــــــد فأنـــــــت مثلـــــــي لـــــــن تعـــــــيش

حتـــــــــــــــــــــــى الأبـــــــــــــــــــــــد

لكـــــــــــــن ســـــــــــــيبلعك العـــــــــــــدم

ويظـــــــل ذكـــــــريَ خالـــــــداً عبـــــــر الـــــــدهور

وســـــــيومئ التـــــــاريخ نحـــــــوي بـــــــاعتزاز

ليقـــــــول هـــــــذا شـــــــاعر ذاق العـــــــذاب

والنفـــــــي والتشـــــــريد مـــــــن أجـــــــل العفـــــــاة

بينـــــــــــا ســـــــــــتطويك الـــــــــــدهور

وتظـــــــل غفـــــــلا لـــــــيس تـــــــذكرك الســـــــطور

وإذا تشـــاء

أومـــــــــــــت إليـــــــــــــك بقولهـــــــــــــا

وغـــــــــــــــــــــــد حقيـــــــــــــــــــــــر

قـــــــد كـــــــان يحيـــــــا مـــــــن شـــــــقاء الكـــــــادحين

قصيدة ليل الغريب:

قصيدة وجدانية نظمها الشاعر عام ١٩٦٠، وهي من شعر تفعيلة البحر السريع. وتعد هذه القصيدة صرخة لعذابات الغربة وضياع الأحلام.

أمـــاه مـــا أطـــولَ ليـــلَ الغريـــب يكـــاد مـــن وحشـــته أن يـــذوب

يرنـــو حواليـــه فـــلا يلتقـــي ســـوى جـــدار مـــن ظـــلام رهيـــب

تعصـــره الظلمـــة فـــي قســـوة ويطلـــب النـــوم فـــلا يســـتجيب

تشـــتعل الآهـــات فـــي صـــدره إمـــا يوافيـــه خيـــال الحبيـــب

يـــود لـــو يبكـــي علـــى دمعـــة يطفـــئ مـــا فـــي صـــدره مـــن لهيـــب

لكنمـــا يخذلـــه دمعـــه كأنمـــا عينـــاه صـــخر صـــليب

وتدور الدنيا من وراء ظله الآخر في الوطن البعيد في الليلة الأخيرة. حمل أوراقه وحقائبه تاركاً وراءه عارض الغربة إلى زمن آخر.

يـــود لـــو انـــه فـــي لحظـــة يطيـــر للمغنـــى البعيـــد الحبيـــب

قبـــل الأرض، يشـــم الثـــرى يعـــانق الأنـــام عنـــد الغـــروب

لاهُـــمَّ فلتكتـــب لـــه عـــودةً تغســـل عنـــه كـــل هـــذي الكـــروب

في هذه القصيدة نلحظ قدرة الشاعر على التقاط العنصر الدرامي والإنساني من الحياة وبعثهما عبر أسلوب لغوي تعبيري يمزج بين الواقع والحلم في تدرج نحو الإيحاء بلغة شفافة. وفي بلاد الشتات تبدأ مرحلة الصراع مع الغربة المكانية والزمانية والنفسية حيث يتساوى لديه الألم بالأمل، والتشاؤم بالتفاؤل.. فهو في حالات من التشظي للحصول على الإقامة التي تمكن الغرباء أمثاله من الحصول على العمل.. عمل لم يجد لديه من سبيل.

قصيدة انفض يديك:

قصيدة وطنية من شعر التفعيلة (مجزوء الكامل)، هذه القصيد التي نظمها الدكتور رجا سمرين في عام ٢٠٠٢ وفيها تصوير معاصر لحال الأمة العربية وشعوبها. والشاعر في قصيدته هذه يخاطب الشعب الفلسطيني: اسقط من حسبانك العرب والمسلمين ودولهم .. اسقطهم من كل مكان هم موجودين فيه: من صحاريهم الشاسعة، ومن عواصمهم ومن قراهم، أخرجهم من تقديرك ولا تجعل لهم أي اعتبار.. فهم من محبي السلام الناقص.. فلن ترى منهم عابراً لنهر الأردن! لقد اندثر العرب وذهب زمانهم وحل محلهم بني فارس والعجم الناقمين والحاقدين على الإسلام وعلى قبائل العرب: مضر وقحطان وهاشم.. ولا يراعون في عداوتهم للأمة

العربية والإسلامية لوماً.. مضت أيام القوة والسطوة عند بني العرب تلك التي كانوا فيها أسودا وصناديداً... فأصبحوا خرافاً وتيوساً لا يهتم أحدا منهم بغير نفسه.. أغنياؤهم خائفون نائمون.. خائفون من الضباع والذئاب ومن كل ظالم.. لا إرادة ولا كرامة ولا عزيمة ولا شهامة.. ظنوا بغبائهم أنهم قد أدوا الواجب بالأموال الطائلة التي تبرعوا بها.. فلا حاجة للطائرات ولا المدافع وراجمات القنابل والصواريخ.. لا ضرورة لها.. يكفي بدلا منها الشجب والاستنكار والتنديد والاحتجاج وفتاوي شيوخ السلاطين تحميهم من كل سلطان وحاكم ومن كل وغد.. حتى لو كان منافقاً مثل أبو رغال دليل الأحباش والفيل في غزو الكعبة.

الشعوب العربية أسرى لسجون الفقر والمحاكم.. يا شعبي المرابط الوحيد لا تخف فإن النصر قادم.. فالشهداء هم أعظم الشهود لكفاحك الذي لا مساومة عليه.. فالله يملي لأعدائك يهود وأمريكان عشاق الجرائم.. حتى إذا حل القضاء يذوقون المذلة.. بل وحينذاك لا شارون ولا بيريز يبقى ولا مناحيم..

انفـــض يـــديك مـــن الشـــراذم يأيهـــا الشـــعب المقـــاوم

انفـــض يـــديك مـــن البـــوا دي والحواضـــر والعواصـــم

انفـــض يـــديك مـــن القصـــو ر وكـــل عشـــاق الحمـــائم

انفـــض يـــديك فلـــن تـــرى عبـــر الشـــريعة أي قـــادم

زمـــن العروبـــة قـــد مضـــى ولقـــد أتـــى زمـــن الأعـــاجم

مـــن كـــل علـــج داعـــر فـــدم علـــى الإســـلام نـــاقم

....

يـــا شـــعبي الشـــهم المنـــا فـــح عـــن كرامـــات المحـــارم

اعلـــم بـــأن الله يملـــي للـــذي عشـــق الجـــرائم

حتـــى إذا حـــم القضـــا ذاق المذلـــة وهـــو راغـــم

إذ ذاك لا (شـــارون) لا (بيريـــز) يبقـــى أو (منـــاحيم)

قصيدة حصاد الخريف:

وهي قصيدة وجدانية نظمها الشاعر عام ١٩٨٧م من شعر التفعيلة بحر الرمل: هي قصيدة تشاؤمية قالها وعمره ٥٨ عاماً والخيال أجمل ما فيها.. ينعي الشاعر في هذه القصيدة شبابه النضر ويتطرق في تشاؤمه معلنا أن حصاد عمره فقد الابن الذي ارتقى شهيداً.. وتحدث عن جفاف آماله وأحلامه وأمنياته... وهو في اغتراب متواصل وترحال مذل ونكد وعنا وضيق.. يقول في مطلعها:

يـــا خريـــف العمـــر مـــاذا بعـــد أن طوحـــت ريـــح الأســـى بـــالألق

مـــا الـــذي يرجـــوه جـــذع واهـــن لـــيس فيـــه غيـــر بعـــض الرمـــق.....

...خيـــر أبنـــائي قضـــى مستشـــهداً فـــر مـــن كفـــي فـــرار الزئبـــق

أدرك الســـــر فـــــولى مســـــرعاً باســـماً نحـــو الخلـــود المطلـــق...

... يـــا رياحـــاً لـــم تـــزل تعصـــف بـــي وتعـــري أغصـــني مـــن ورقـــي

إن إيمـــــاني بربـــــي راســـــخ لا يبـــــالي بلظـــــاك المحـــــرق

وفي تشاؤمه يقر بحكمة فيقول:

لـــيس يرجـــو الخيـــر مـــن دنيـــا الفنـــا غيـــر إنســـان غريـــر أحمـــق

ومن الغرابة أنه نظم قصيدته هذه بعد أن تفضل الله عليه بحفيده الأول محمد نزار سمرين بثلاثة شهور ويقول في حفيده في قصيدة له من البحر الكامل بعنوان (الحمد لله):

الحمـــــد لله الكـــــريم المرتجـــــى اليـــوم قـــد جـــاء "محمـــد رجـــا"

لله در وجهـــــه مـــــا أجملـــــه ســـبحان مـــن قومـــه فأكملـــه .....

..... أنعـــم بـــه مـــن عـــوض لعمـــه محمـــــد بروحـــــه وجســـــمه

ذاك الـــذي قـــد عـــانق الخلـــودا حـــين مضـــى معظمـــا شـــهيدا

قصيدة سر الحياة:

قصيدة وجدانية نظمها الشاعر عام ١٩٥٣ من شعر التفعيلة البحر المتقارب.

هي قصيدة غريقة في بحر الظلام والشكوك القاتلة المؤدية للكفر! نظمها وربما لم يكن الشاعر قد استقر من الناحية الأيديولوجية.. فتارة هو شيوعي، وتارة هو من الإخوان المسلمين... يقرأ فلسفات متباينة ليرسي عقله عند واحدة.. وفي جلسة عند أعلى قمة في رأس جبل المقطم في مصر، برفقة أحد الأصدقاء وهو "الحسيني حمد" -من عرب جهينة- وهو ناظر إلى القاهرة القديمة يقول:

على ذروة قرب هام السحاب جلست أراقب موت النهار

أسرح طرفي بذاك الفضاء الفسيح العميق البعيد القرار

في الأبيات التالية تساؤلات.... فيها يسأل الشاعر الجبال والسهول والنجوم والسماء عن أسرار هذا الكون العجيب في فكر يحمل فكر المعتزلة والمرجئة في البعث والحساب وسطوة القدر والجنة والنار...

أسائل تلك الجبال العظام أناشد تلك السهول الفساح

بربك كيف يموت النهار ويحيا الظلام، ويأتي الصباح...

...أجيبي أجيبي فإني غريق ببحر الظلام، ببحر الشكوك

أنيري طريقي فإني ضليل أسائل كيف يكون السلوك؟!

ثم يأتيه صوت من شرفة الفجر يقول له:

...ومن شرفات الأثير تحدر صوت يقول: أياذا الغريق

رويدك رويدك يا ابن التراب المهين إليه تؤول ومنه أتيت

وسوف تنبأ ماذا يكون بعيد الممات إذا ما قضيت

قصيد التقاعد:

وهي قصيد وجدانية من شعر التفعيلة البحر الوافر- نظمها الشاعر عام ١٩٨٩م.

يعلن الدكتور رجا عن توقفه عن العمل وتقاعده كموظف في مؤسسة، ورغم ذلك.. سيظل يقرض الشعر ويغنيه. طوبى لمن ظن أن السعادة والهناء والكفاءة ملتصقات بسن معينة، وأن المتقاعد لم يعد يرجى له عونا! وهذا غباء وكذب وافتراء.. يتساءل الشاعر: هل يحقق الموظف ما يتمناه؟ سوى الأوبة بخفي حنين؟!

ليس هناك أكثر متعة من أن تفرغ للأحلام والفنون دون خوف من رئيس يظلمني أو يتجنى علي..

أنا الآن طائر أفرش جناحي متنقلاً من غصن لآخر.. أنام ساعة الضحى وأسهر الليل مرتاحاً.. أسافر إلى أي بلد دون إذن، غير آسف على ترقية أو علاوة.. تفرغت لكل جميل في حياتي أتأمل البرايا، وأنظم شعراً تطرب له الدنيا وتشاركني التغني.. فرغت لكل حلو في حياتي.. وللقراءة.. ولقرض الشعر.. أجالس الحبيبة أذكرها بأيام الطيش والحب والتصابي.. أمتعها بأشعاري وبغرامي.. أسأل الله أن يطيل عمري وأن يرزقني حسن الختام حتى أتمتع بثمار النصر المرتجى وترى وطني عيناي، وعودة القدس والدفن في بلدتي قالونيا ففيها فقط تهنأ وتستريح رفاتي ولا تهنأ في غيرها ولو دفنت في جنات عدن..

أحلت إلى التقاعد غير أني ... سأبقى رغم تنحيتي أغني

لحى الله امرءا قد ظن يوما ... بأن السعد مرهون بسن

وأن تقاعد الإنسان يعني ... نهايته، فلا يرجى لعون...

... وهل في العيش أحلى من حياة ... أعيش بها لأحلامي وفني؟!...

...فرغت لكل حلو في حياتي ... أزاوله كما أبغي بأمن...

... فيا رباه أحسن لي ختامي ... ودع عمري يطول زهاء قرن

لعلي أشهد النصر المرجى ... وتبهج رؤية الأوطان عيني

وأشهد عودة للقدس يوماً ... وفي قالونيا أحظى بدفني

فلـــن تهنـــأ رفـــاتي فـــي ســـواها ولـــو ووريـــت فـــي جنـــات عـــدن

قصيدة العلم والإنسان:

من شعر التفعيلة مجزوء الكامل.

يفتتح الدكتور رجا قصيدته مقتبسا من القرآن الكريم : "الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم." صدق الله العظيم. يقول:

جـــــــل الـــــــذي قـــــــد علـــــــم الإنســـــــان علمـــــــاً بـــــــالقلم

وهـــــــداه للســـــــبل التـــــــي قـــــــد أخرجتـــــــه مـــــــن الظلـــــــم

فمشـــــى علـــــى ســـــنن الهـــــدى متحفـــــــزاً نحـــــــو القمـــــــم

علم الله الإنسان ما لم يعلم وهداه السبل التي قد أخرجته من الظلمات، وشق طريقه متحفزاً نحو قمم العلم والوجود غير مكترث بعقبات أو فتور وألم، فشق التربة وزرعها فأثمرت له نعما لا تحصى ولا تعد.

ومخر البحار بسفنه وبوارجه وكبير قواربه وصغيرها. بل حلق وشارك الجوارح والطيور والنسور الفضاء.. وأبهج نفسه بالقمر فشعر له أعذب الشعر بأنغام حملت أمانيه حتى يسير عليه ، فحقق حلمه وسار في الفضاء ومشى فوق القمر في همة شماء.

لكن الإنسان أبى إلا أن يتخلى عن إنسانيته متناسياً مبادئ وقيم الوجود الأصيل، واتبع هواه وغرائزه فسقط عن قممه وضل هواه متخبطاً لفناء الطير والحيوان والبقاع وبني جنسه وكرومه وحقوله، يحيلها إلى أطلال خاوية من كل خير إلى ظلام وجفاف! يا ويل الإنسان وقد غاب عنه انه لو التزم بالحب والسلام في حياته لعاش عيشة خالية من كل كره وظلم وعواء ومرض ولساد حكم الله وهاب النعم فيسود الحب كل القيم.

لكنـــــــه يـــــــا ويحـــــــه نســـــــي المبـــــــادئ والقـــــــيم

فمضـــــى يســـــير بـــــلا هـــــدى متخبطـــــــاً عبـــــــر الســـــــدم

ومضـــــــى يجهـــــــز للفنـــــــاء قنـــــــابلاً تنفنـــــــي الأمـــــــم

قصيدة إلى طفلة:

وهي من شعر التفعيلة البحر المتقارب، وهي قصيدة غزلية نظمها عام ١٩٧٧.

الطفلة هي فتاة صبية في السابعة عشرة من عمرها، كانت جارة وصديقة لابنة الشاعر الكبرى. هذه الفتاة رجته وألحت عليه إلحاحاً كما اللاصق به لا تفتر عنه أن ينظم فيها شعراً ويتغزل بها.. ففعل! يقول منها:

أيتها الطفلة المغرورة المنشغلة بأمنيات الحب وما يحويه من رقة ودلال وحنان في سني عمرك...أحب وجهك كصبح انبلج عن ليلة ظلماء.. وصدرك الذي بدت عليه مواسم خصب قريبة القطوف، وأحب صوتك المضمخ بالمسك وأنت ترجوني أن أتغزل بك.. فتغزل بسذاجتها وبراءتها محذرا إياه من حب الشاعر وناره التي أحرقت عددا يعلمه الله من الغواني! فحذار ظلي بعيدة ولا تقربي شباك الحب يا سامية..

أيـــا طفلـــة غـــرة لاهيـــة أحـــب ســـذاجتك الباديـــة

أحـــب البـــراءة فـــي مقلتيـــك تنبـــئ عـــن ثـــورة غافيـــة

ومـــا فيهمـــا مـــن حنـــين عظـــيم إلـــى عيشـــة حلـــوة هانئـــة

قصيدة شرك العيون:

وهي قصيدة عزلية نظمها الشاعر عام ١٩٨٧، من شعر التفعيلة الحر بحر الرمل.

فيها يحدث الشاعر نفسه كالمهموم عن إحداهن . يشتكي مقلتاها وشركهما، فسقط قلبه وبكى طالبا الرحمة من أهدابها.. فتعالت زهواً قائلة: ويلك تطلب الرحمة من مقلتين تضربك بسهم مهلك فيه حتفك! فمن ذلك؟

فيجيبها: إنه عبد الجمال أسير نورك أشكوك منك إليك مرتبك بسحر هواك اللاهب. فأنت روحي وقد أتعبني البكاء فارحميني ... وإلى الله القدير المشتكا..

نصـــبت لـــي مقلتاهـــا شـــركا فهـــوى قلبـــي جريحـــا وبكـــى

طلـــب الرحمـــة مـــن أهـــدابها فازدهـــت كبـــرا وقالـــت: ويلكـــا

كيـــف ترجـــو رحمـــة مـــن مقـــل ترســـل الســـهم مصـــيباً مهلكـــا

أنهـــا حتـــف الـــذي يرنـــو إلـــى سـرها الخـــافي فمـــن ذا دلكـــا؟!

فـــالتمس إن شـــئت بـــرءا بلســـما لـــيس تعطيـــه لصـــب قـــد شـــكا

قلـــت يـــا دنيـــا فنـــون أبـــدعت مـــن أفـــانين التصـــبي فلكـــا

من خلال النافذة:

وهي قصيدة غزلية نظمها الشاعر عام ١٩٥٣، من شعر التفعيلة بحر الرمل.

اعتاد شاعرنا أن يجلس في شرفته يرنو إليها من خلال النافذة.. واعتادت هي أن تجلس في النافذة ترنو إليه من خلالها. ولم يكن يضايقه شيء أكثر من رؤيتها مغلقة!

كانت فتاة لعوب تحب الشباب وتنظر إليهم نظرات حب وهيام وشوق وغرام واشتهاء ... وكان ينظر شاعرنا إليها وكأنها فينوس آلهة الحب يتعبدها في محراب شرفته..

أي بـــدر مـــن خـــلال النافـــذة ســـــــــاطع الانـــــــــوار

يقـــذف الصـــب بعـــين نافـــذة تهتـــــــــك الأســـــــــتار

خلهـــــا لا تغلقيهـــــا إننـــــي مـــــــــدنف ولهـــــــــان

إنهـــا الـــوحي الـــذي لا ينثنـــي يلهـــــــــم الألحـــــــــان

أنـــت "فينـــيس" التـــي أعبـــدها يـــــا ابنـــــة الأحـــــلام

عـــذبيني لســـت مـــن يجحـــدها نعمـــــــــة الإلهـــــــــام

أرفض العودة:

قصيدة وطنية من شعر التفعيلة بحر الرمل، نظمها الشاعر عام ١٩٩٥م، وقد قيلت من وحي اتفاقية اوسلو. حيث يرفض فيها الشاعر العودة إلى القدس بتصريح يهودي ويرفض العودة إلى قريته قالونيا وهي أسيرة وهي عنده أسمى من جميع المدن الغراء ... يقول الشاعر:

أرفـــض العـــودة للقـــدس بتصـــريح يهـــودي

فيـــه أن القـــدس لســـت وطنـــا لـــي عـــن جـــدودي

فيـــــه أنـــــي لســـــت إلا ســـــائحاً عبـــــر الحـــــدود

جـــــــــاء كـــــــــي ينظـــــــــر للســـــــــور

يصـــــــــــــــــــلي ركعتـــــــــــــــــــين،

عنـــــــــــد أولـــــــــــى القبلتـــــــــــين،

فـــــــــإذا اســـــــــتنفذ تصـــــــــريح الزيـــــــــارة

عـــــــــاد مـــــــــن حيـــــــــث أتـــــــــى...

قصيدة يا ذل الروح:

وهي قصيدة وطنية نظمها الدكتور رجا سمرين في عام ١٩٩٤م، من شعر التفعيلة البحر المتدارك، وهي قصيدة رائعة تحمل روح "الذل"... فيها يشرح الشاعر مظاهر ذل الروح والذل العربي والخزي والعار الذي لحق بها...

يـــــــــــــــــــا ذل الـــــــــــــــــــروح

يـــــــــا تعـــــــــس فـــــــــؤادي المجـــــــــروح،

مـــــــــــــا هـــــــــــــذا الخـــــــــــــزي؟!

مـــــــــــــا هـــــــــــــذا العـــــــــــــار؟!

أمجـــاد الأمـــة مـــا عـــادت تـــوحي للـــنفس بـــأي فخـــار،

فـــــــــابن الخطـــــــــاب ســـــــــحابة صـــــــــيف

مـــــــــــــــــــرت كـــــــــــــــــــالطيف

فـــــــــــــي أفـــــــــــــق الأرض العربيـــــــــــــة...

يستطرد الشاعر ... إذا ساورك الشك بهذا الأمر فسل أصحاب الأمر فهم أدرى بأسرار اللعبة وهم أدرى من كل الناس بأسرار الديمقراطية:

أوراق اللعبـــــة كاملـــــة فـــــي أيـــــدي امريكـــــا

والامريكـــــــــان يحبـــــــــون الديمقراطيـــــــــة

ديمقراطيـــــــــــــــة داء "الإيـــــــــــــــدز"

وانـــــــــــا رجـــــــــــل "شـــــــــــوري"

لا يـــــــــــــــــؤمن بالديمقراطيـــــــــــــــــة

ديمقراطيـــــــة امريكـــــــا والغـــــــرب الـــــــداعر

وإذا ســـــاورك الشـــــك بهـــــذا الامـــــر الســـــافر

فســـــــــــلي أصـــــــــــحاب الأمـــــــــــر...

قصيدة إصرار:

قصيدة قومية من شعر التفعيلة الرمل نظمها الشاعر عام ١٩٥٦م، بمناسبة العدوان الثلاثي من قبل فرنسا وانجلترا ويهود ضد مدينة بورسعيد التي قاومتهم ببسالة وشجاعة، يقول منها:

... أنـــــا فـــــي عروقـــــي ثـــــورة لـــــن تنطفـــــي

إلا إذا حطمـــــــــــــت رأس المجحـــــــــــــف

إن رضـــــــعت لبانهـــــــا وأنـــــــا صـــــــغير

ولهـــــــــــا بأعمـــــــــــاقي زفيـــــــــــر

يغلـــــــــــي كبركـــــــــــان كبيـــــــــــر

دومـــــــــــــــــا يفـــــــــــــــــور

ويهـــــــــب بـــــــــي كـــــــــي لا أنـــــــــام
حطـــــــــــم أعاديـــــــــــك اللئـــــــــــام

شعراء وأدباء رثوا أبناءهم

من مرارة الألم تمخضت دواوين تقطر حزناً وتعبر عن مشاعر مأساوية، فعندما كان القدر يخطف ابناً لأحد الشعراء أو الأدباء ويحرمه من فلذة كبده يتحول هذا الأديب من الحب والغزل إلى انتاج شعر خصب في الرثاء...

فراحوا يرثون أبنائهم بكلمات دامية مؤثرة كتبت بدموع حرى.. ومقطوعات أدبية رائعة كما حصل مع الأديب "إبراهيم عبدالقادر المازني" حيث أبدع في كتابه بعنوان (في الطريق) بحديثه عن ابنته الصغيرة التي اختطفها القدر من بين يديه وهي في غرار الطفولة.. فصور ذكرياته معها وما كانت تأتيه من لعب ولهو وعبث... وصوّر ذلك تصويراً باكياً رائعاً.

وبعد ثلاثة أشهر من وفاة "سري" الابن الوحيد للأديب المصري "خليل السكاكيني" لم يصمد أمام هذه المأساة.. فلحق الأب الثاكل بابنه.

وأثرت وفاة "رجاء" الابن الوحيد للأديب المصري "أحمد حسن الزيات" المولود عام ١٩٣٢.. وكان الأديب على أعتاب الأربعين من عمره ومع خلاء بيته من البنين والبنات.. ملأ الطفل رجاء – الذي أقبل على شوق ولهفة - حياته دفئا حلواً وأملاً واعداً ثم اختطفه الموت في عامه الخامس... وكان الأب يحس الثكل بعاطفة مضاعفة عاطفة الوالد.

ورثى الكاتب والصحفي المصري "علي يوسف" صاحب جريدة (المؤيد) ابنه عمر قائلاً: (فقد صاحب هذه الجريدة الساعة السادسة بعد ظهر أمس ابنه الوحيد "عمر يوسف" في الحادية عشرة من عمره بعد مرض قليل الأيام كثير الآلام..).

يقول ابن منظور في الدلول اللغوي للرثاء: رَثى فلان فلاناً إذا بكاه بعد موته..، فإن مدحه بعد موته قيل رثَّاه... والرثاء يعد من أبرز الأغراض الشعرية عند العرب في كل عصور الشعر ومراحله.. ومن أشهر الراثين الخنساء التي اشتهرت برثائها لأخويها، وابن الرومي الذي رثى ابناءه الواحد تلو الآخر، وأبي ذؤيب الهذلي برثائه لأبنائه أيضا... والقائمة تطول.

يختزل شعر الرثاء عند الدكتور رجا سمرين ألواناً من الندب والتأبين والعزاء الأسري والقومي والوطني والاجتماعي.. وقد عني به الشاعر عناية قصوى، وتحدث النقاد والأدباء عن شعره في الرثاء، وفي القصائد التي رثى الشاعر فيها ابنه الشهيد.

ففقد فجع الشاعر باغتصاب بلدته قالونيا فبكى عليها ورثاها في قصيدته (على قالونيا أبكي)، ورثى والده في قصيدة (رسالة حب إلى سيدي الوالد في مثواه الأخير). وبكى صديق عمره علي دُمَّر، والأديب إبراهيم عابدين وغيرهم..

ونعى الشاعر شهداء الفردان الذين اغتالتهم قوات الغدر الصهيونية وهم (كمال عدوان، كمال ناصر، وأبو يوسف النجار). وقام بتأبين عباس العقاد، وتفاعل مع الثورات العالمية فرثى الأبطال الذين ضحوا بحياتهم في سبيل قضاياهم.

****

الخاتمة

هل غطى الشاعر الدكتور رجا سمرين – على اختلاف وتنوع قصائده الشعرية- كل بحور الخليل في قصائده؟ الإجابة: نعم.

إن الشعر الحر هو تطور للشعر التقليدي... لكنه غير قادر على الحلول محله أو ترجمة هموم الناس وقضاياهم الكبيرة.. وقد كان أن دخل الشعر الحر في سرداب لا نهاية له. ويبقي الحر أقصر قامة من الشعر التقليدي. وأضعف ترجمة لمشكلات الإنسان العربي حتى اللحظة...

إن الاهتمام بالمأثورات الشعبية ودراستها بتعمق لا يشكلان خطورة من نوع ما، ذلك ان الجاحظ والأصفهاني وغيرهما اهتموا بالأدب الشعبي العربي مؤكدين على أن اللغة العربية العظيمة لا خوف عليها بعد أن أصبحت لغة توقيفية أوقفها الله لخدمة القرآن الكريم وخدمة العرب.

إنما الخطورة تتمثل في تعريض هذا الأدب للضياع والنهب والبعد عن دراسته. وخير مثال على ذلك ما فعلته إسرائيل، عندما نهبت تراث الشعب الفلسطيني وسرقته على أنه من مخلفات التوراة والأدب اليهودي.. ومن أكبر الأساتذة العرب الذين اهتموا بدراسة التراث "عبدالحميد يونس" حيث سعى إلى خلق نوع من الوجدان الشعبي الجمعي والمفاهيم الواحدة المشتركة، ودعا إلى وحدة الأنماط الشعبية والوصول إلى حقائق ثابتة.

المؤلف في سطور

- ولد في الثالث من مايو عام ١٩٣٣م.
- بدأ دراسته في كتاب القرية وفي مدارسها حتى عام ١٩٤٧م.
- انتقل إلى مصر وواصل دراسته الثانوية فيها أيام النظام الملكي وثورة ناصر عام ١٩٥٢م.
- حصل على دبلوم المعلمين والمعلمات الخاص – قسم اللغة الإنجليزية من القاهرة عام ١٩٥٦م.
- حصل على بكالوريوس الآداب قسم فلسفة واجتماع من بيروت عام ١٩٧٠م.
- اشتغل في تعليم اللغة الإنجليزية في مدارس الأردن الثانوية، وفي مدارس الكويت معلماً ومرشداً لطلاب ومعلمي اللغة الإنجليزية زهاء أربعة وثلاثين عاماً.
- اشتغل محاضراً في دروس اللغة الإنجليزية وآدابها في كليات المجتمع في الأردن بعد عودته من الكويت.
- له عدة مؤلفات منها: قريتي قالونيا – الأرض والجذور عام ١٩٩٣م، أشواك في العيون سنة ٢٠٠٢، القصة الكاملة للقنبلة الذرية اليهودية والإسلامية والعربية سنة ٢٠٠٥، حديث القريتين –رواية ٢٠٠٩، فرسان الذاكرة سنة ٢٠١٧، التوق إلى الماضي والحنين إلى الموطن سنة ٢٠٢٠م.

فهرس المحتوى

الموضوع	رقم الصفحة
تمهيد	٤
إهلال	٦
الفصل الأول:	٧
- والد الشاعر	٨
- والدة الشاعر	١٢
- الشاعر يزهو بنفسه	١٥
الفصل الثاني:	
- ما بين الشعر والفلسفة نسباً وصهراً لا ينفصمان	١٨
- الرمزية في شعر الدكتور رجا سمرين	٢٢
الفصل الثالث:	
- بين الشاعر والشعراء	٤٧
الفصل الرابع:	
- طوائف من آثاره الشعرية	٥٩
- شعراء وأدباء رثوا أبناءهم	٧٩
الخاتمة	٨١
المؤلف في سطور	٨٢